أغنية البجع، للكاتب ران أدلسيط(١)

لحظات الغسق ما بين غروب الشمس وبزوغ القمر وآخر الخيوط الشمسية تتكسر على ذرى التحصينات وزوايا المواقع على الجانب الغربى من القناة.

كان قرص القمر المنبلج من خلف سلسلة الربى الواطئة البعيدة يسكب نوراً باهتًا على فتحات الدشم وعلى عربة الطعام المشدودة إلى عربة نصف جنزير فيكشف عن عدد هائل من الثقوب يرصع لوح العربة الجانبى. كان الموقع الليلى معدا على ما ينبغى ولم يكن هناك ما يجب عمله سوى ترتيب حائط الأكياس الرملية التى تبطن جدار الموقع على صورة ثابتة مستقرة.

يقال إن الإصابة المباشرة تمثل احتمال واحد فى المليون.. ومن المهم أن تكون القذائف نفسها على تسليم بهذا الاحتمال.

كان إيتسيك الجالس بالموقع مديد القامة مهدل الثياب والحركات.. ترتسم على وجهه تعبيرات الإرهاق، نظر فى ساعته، بعد عشر دقائق ينضم إليه يوسى وهو الآخر مديد القامة وإن كانت حركاته وملابسه تتسم بالدقة، ومع أن وجهه كان يحمل نفس التعبيرات المرهقة إلاّ أنه كان يضم إلى ذلك تعبيرًا آخر.

اكتمل اليوم أسبوع على مكثهما معا كل ليلة فى هذا الموقع.

---

(١) على همشمار، ١٧/ ٤/ ١٩٧٠.

فى ليلتهما الأولى أصيبا بصدمة، كانت كل قذيفة تسقط تفجر فى نفسيهما شعورًا بأن نهايتهما قد حانت مع سقوطها، الصفير والدوى وزلزلة جدران الموقع وتراقص الخوذات.

بعد ذلك تعودا.. كانا يقذفان بنفسيهما على عجل من خلال الفتحة الضيقة.. ينكس كل منهما رأسه بقدر معين ويضغط بيديه على حافة الخوذة الحديدية. وخلال جزء الثانية الواقع ما بين الأزيز الملهوف والسقطة المرعدة.. كان كل واحد يضغط جسده حتى أطراف أصابعه فى نقطة متناهية الضآلة حتى يبدو كرأس دبوس لا جسم له، وبعد ذلك كان كل شىء يسترخى من تلقاء نفسه فى بطء.

على هذا النحومن التصرف يتاح لهما أن يكونا رابطى الجأش أثناء القصفات، جزء من الجسد يؤمل وينكمش وجزء يتطلع ويرسل التقارير.. بينما الصلة بين الجزأين معدومة تمامًا ونغمة الصوت الذى يحمل التقارير هادئة وأحيانًا جزلة، جزلة حقًا فى بعض الأحيان.

وفى الصباح وعندما تتسع دائرة الضوء المغبش إلى حد الرؤية الفعلية كانا ينزلان من الموقع وينشغلان بإحصاء الحفر الصغيرة التى تخلفها القذائف من عيار ٨١ مم ويتفحصان فى خوف الفوهات الغائرة المتخلفة فى الأرض عن القذائف من عيار ١٢١مم، ١٦٠ مم.

فى أحد الأيام وجدا فى قناة الاتصال المؤدية إلى موقعهما انهيارًا نتج عن قذيفة، قالا: "ليست هذه قذيفة " .. "إنها احتمال.. ومن سمع عن احتمال يقتل؟ "

فى إحدى المرات كان إيتسيك ينظر فى العتاد يتفحصه قطعة قطعة بيدين تتحركان فى تمرس ويقدر زاوية توجيه الرشاش.

وأقبل عليه يوسى.

- أهناك جديد؟

- ثلاثة أسابيع أخرى.

- حتى هذا يمثل خبرًا جديدًا.

ثم جلسا كل منهما يدخن سيجارًا كبيرًا فى صمت، بين الفينة والأخرى كان أحدهما ينهض ليلقى نظرة فى المنطقة المحيطة.

- سمعت أنكم قد هربتم اليوم من موقع المراقبة، قال يوسى..

- هربنا؟ إنه لتعبير مخفف.

- ماذا حدث؟

- وجهوا المدافع المضادة للدبابات إلى الموقع، كنا نجلس محاولين تحديد الموقع الذى قصف الموقع.

وفجأة سقطت قنبلة وامتلأ الموقع بدخان ملتهب، جلسنا على الصندوق وكل منا ملتصق بالآخر محاولين أن نتمالك أنفسنا وأن نفكر فيما يجرى، إنك تدرك بالطبع ماذا يكون الحال، غريزة تستصرخ الإنسان كى يهرب وأخرى تتساءل عما عسى أن يقوله الرفاق، وعندما كدنا نصل إلى قرار لحق بنا رفيق ثالث، كان أطول قامة، وأدركنا أننا على لوحة التوجيه فى مدافعهم إذن فقد اكتشفوا الموقع، وتولانا الرعب فأطلقنا سيقاننا هاربين، وكما سمعت فقد فررنا إلى داخل الدشمة، جلست هناك حوالى عشر دقائق حتى استطعت أن ألملم عظامى التى اختلفت مواضعها من الصدمة وبعد ذلك فقط ذهبنا لنبحث عن موقع بديل.

- لقد أطلت الحديث.. قال يوسى والآن كيف سننظم أنفسنا الليلة؟

- هل تعلم أننى أتمنى أحيانًا أن يجيئوا، ليس هذا عملاً أن نستعد وننتظر كى نستعد وننتظر لنستعد ثم نعود فننتظر، لقد سئمت، أن يجيئوا ويهاجموا فهذا يعنى أننا سنهاجم بالتالى ونضع لهذه العملية نهاية.

- أين أنت من هذه النهاية؟ إن النهاية بالنسبة لك ليست سوى أن تنفق هنا[1] وإذا ما قتلت عشرة من العرب فإن هذا سيكون النهاية بالنسبة لهم، أما العملية

---

(١) هكذا وردت بالنص العبرى.

نفسها فلن تكون لها نهاية، إننى أعتقد أن هذا لن يؤدى إلا إلى إطالة أمدها، وأنت تعلم على أى نحو سيكون الوضع حينذاك، فأنت ستتباهى بالنجاح فى ضربهم وستقول فى فخر: هكذا، إننى مستعد طيلة الوقت.

أما هم فسيعتريهم السخط على فشلهم وسيحاولون مرة أخرى.

- أو. كى. ليرسلوا آخرين، فسنضربهم جميعًا.

- لم أكن أعلم أنك سفاك دماء على هذا النحو.

- من سفاك الدماء؟ إننى أقول هذا لمجرد أنهم يريدون قتلى.

- لكنك قلت إنك تريدهم أن يجيئوا. ألم تقل ذلك؟

- هيه !! أخذتنى بكلمة، دعنا إذن نجرى مساجلة بالمنطق وعلم النفس لنرى أين نقف.. هيه؟

- كى يتم هذا فلا بد أن نبدأ من المشكلة الصهيونية.

- أى منطق هذا؟ إننى هنا المعرض للفناء وليست الصهيونية أو شعب إسرائيل.

- إنك إذا لم (تمت) هنا.. فإن شعب إسرائيل لن يعيش هناك.

- هل تقول هذا لأنك متأكد منه أم لأنه حجة فى النقاش؟ "لهجة الصوت مكدودة وممطوطة.. تحمل نغمة عدم المبالاة بدرجة معينة ".

"- هيه "سترى أننى لا أعرف بقدر كاف يمكننى من أن أتكلم بصورة يقينية.

- ومن الذى يعرف؟

- ما هذا السؤال؟ الجنرالات.. رؤساء الحكومات وزراء الدفاع والبقال الذى أتعامل معه يعرف هو أيضاً.

- وما الذى يعرفونه أكثر منك.؟

- إنهم يعرفون ماذا سيحدث إذا لم نقعد هنا، هم يعرفون ماذا سيفعل الروس وما الذى سيفعله ناصر وماذا سيفعل الأمريكيون؟

- وهل يعرف كل منهم ماذا سيفعل صاحبه؟

- دعك من السخرية والتهكم؟

- ما شأن التهكم بما أقول، قلنا إن هذه مساجلة وبناء على ذلك أسألك.. من أين لك أن تعلم أنهم حقيقة يعرفون؟

- قبل كل شىء أنا أقعد هنا.. ومن المؤكد أنهم يعرفون ذلك.. أليس كذلك؟

بلى.

- إننى أقدر أن وجودى هنا يمثل أفضل خيار ممكن، أعني أنهم يقدرون ذلك، ذلك إذا أردت شيئًا مثلا السلام والأمن فإنه لا بد لك من بذل كل أنواع الأشياء: العمل، المال، وكذلك الدماء.

- السلام قبل كل شىء، وكما يقولون جميعًا اليوم.. السلام والحدود الآمنة، هل ستقول إنك تريد أن تناقش ما المقصود بعبارة الحدود الآمنة؟

- أنا كردى والسلام بالنسبة لى هو عدم إطلاق النار.

- توقف عن إطلاق النار إذن.

- ومن أين لك أنهم سيتوقفون بدورهم؟

- ومن أين لك أنهم لن يتوقفوا.. هل حاولت؟

- كلا، ولكن فضلاً عن ذلك فإن هناك الحدود الآمنة، ولا تنس أن الوقوف عند المطالبة بالحدود الآمنة يمثل أيضًا انتقاصًا من أرض إسرائيل.. إننى لست من المنادين بأرض إسرائيل الكاملة، لكننى أعتقد أن الحصول على رقعة أرض تكفل الحدود الآمنة أمر لا يضر، وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك جماهير من الرفاق متحمسون لهذه القضية قضية الوطن الكامل.. إنك تعرف التاريخ والمشكلات؟

- ليذهب هؤلاء الرفاق إلى الجحيم، يقال طيلة الوقت إن هناك جماهير منهم.. حتى أننى قرأت فى الصحف أن البلاد مليئة بهم، ولكن أين هم بحق الشيطان؟ من هم؟ ألا أعرف أنا عددا كافيًا من الرفاق؟

إننى أعرف الملايين ومع ذلك فإننى مضطر لأن أبحث بينهم على ضوء شمعة عن هؤلاء المتحمسين، وعندما أعثر عليهم فإننى لا أجد رفاقًا، هيه.. هيه.. سأشرح لك، إننى أعرف جماهير من الرفاق يفعلون ما يقال لهم دون نقاش.. إذا قيل لهم حاربوا.. فسيحاربون، وإذا قيل لهم استوطنوا.. فسيستوطنون وإذا قيل لهم اقتلوا، فسيقتلون.. ولكن أين هم من الحماس للأماكن المقدسة؟ على أى حال فإنه يبدولى أن كل من يكتبون عن هذا لا يدركون أنه يمكن يقينًا القيام بكل هذه الأعمال دون أن تمس مدينة الخليل قلب أحد، إننى أعرف بضعة أسباب أخرى للقيام بالأعمال الوطنية.

حسنًا.. لنترك السياسة إذن ولنهتم بأنفسنا، ما الذى تفعله هنا؟

- أى سؤال هذا؟ لقد استدعونى إلى الاحتياط فجئت.

- ولو لم يدعوك.. فهل كنت ستأتى؟

- كلا، ولكننى لم أشأ أن أتهرب، لقد كان يمكننى قطعًا أن أعفى نفسى بسهولة وكذلك أنت.. أليس كذلك؟

- بلى.

- إذًا ما الذى تبغى الوصول إليه بهذا الاستقصاء؟

- أننى لا أستقصى.. إننا نجرى مرانا فى المنطق وعلم النفس.. أليس كذلك؟

- آهاه.. يهمنى لو أنك أجريت هذا المران فجأة فى تل أبيب كذلك.. ألست متأكدًا من أن الظروف هنا تؤثر بعض الشىء؟.

- ربما.

- ماذا تعنى ربما؟ نعم أم لا؟

- ربما.

- حسنًا.. إذن فقد بات من الواضح لنا أنه لا يمكن استخلاص نتائج من مساجلة نجريها تحت ضغط ظروف معينة، لنرجئ استخلاص النتائج إلى نهاية المناقشة ولنجر النقاش فى تل أبيب بأحد المقاهى.. هيه؟

- هيه..

- لا تكن تهكميًا على هذا النحو، لقد اعترفت بنفسك أنه كان يمكنك أن تعفى نفسك، لقد جئت بسبب ما يسمى "بالوعى الداخلى".

- إننى لا أعرف الكثير عن الوعى الداخلى، ولكن هناك أمرًا واحدًا أستطيع أن أتحدث عنه بثقة كاملة على أنه وعى داخلى كامل يقع فى دائرة الشعور ودائرة اللاشعور، إننى لا أعرف كيف ستسميه.. وهو يتحدد فيما يلى:

أن أنفق.. فهذا أمر لا أريده، وإذا حاولت أن أربط بينه وبين واجبى فى سبيل الوطن.. فإن المحاولة تصبح بالنسبة لى أمرًا فظيعًا معقدًا، لو قلت لى الآن بكل الجديّة: إن واجبك الوطنى يتطلب منك الصعود فوق سطح الموقع لتفعل كذا وكيت ثم تتلقى رصاصة فى رأسك فإننى لا أعرف ما إذا كنت سأصعد أم لا، إننى أدرك أن هذه مسألة افتراضية وأن هناك تأكيدًا دائمًا على عدم التعرض لمثل هذه المخاطرة الفجة.

لكنك إذا قلت لى إننى سأصبح مشوهًا فإننى أعتقد أننى لن أكون مستعدًا لذلك.

- أنت تتحدث بهذه الصورة؟ لقد كنت طيلة معرفتى بك تجرى إلى أى مكان تفوح منه رائحة الخطر، لقد ذهبت لتخدم فى أشد وحدات الجيش خطورة أليس هذا نصف تشوه؟

- كلا.. ليس هناك نصف تشوه، هناك تشوه وما يتبقى عند ذلك ليس سوى الروح.

- حسنًا.. لقد شاركت منذ فترة قصيرة فى بضع عمليات هائلة الخطر، وأن مجرد تفكيرى فى أنه كان ينبغى علىّ أن أكون هناك معك يبعث القشعريرة فى جسدى، فلماذا تقفز فجأة إلى موضوع التضحية من أجل الوطن؟

- مهلاً.. فهذا ما أريد أن أشرحه لك.. اسمع: إن مقعدتى كما تعلم مكونة من قسمين.. فى أحدهما فلفل أحمر وفى الثانى فلفل أخضر، وكلاهما حريف،

وعلى هذا فإن تحركى فى أى اتجاه إنما يكون بسبب مقعدتى.. لاننى أريد أن أثبت لنفسى - وهذا لأننى نشأت فى الكبوتس حيث الكل هناك محاربون والعرف العام يقتضى هذا - ما إذا كنت أنا الآخر مفيداً للوطن أم لا.

إن هذا اعتبار له قيمته ولكنه ليس الاعتبار الوحيد وربما ليس الاعتبار الأول.

إن كل ما ينبغى عليك عمله الآن هو أن تصورنى وعندئذ سترى المثال، حقيقة أنه مثال غير واع، ولكنه المثال.

- وهذا بالضبط ما نحن فى حاجة إليه الآن.. أمثلة غير واعية.

- دعك من السخرية.

- أيه سخرية؟ إننى أتحدث فى موضوعية كاملة، إن الجندى الحسن هو الجندى الذى ينفذ الأوامر إلى نهايتها وكذلك هو الجندى الذى لا يكره العدو.. أم أنك ترى غير ذلك.؟

- لا تكن جائراً، إننى لا أكرههم لأنه لا صلة لى بهم.. إننى أريد منهم أشياء واضحة، ولقد حصلت على بعض من هذه الأشياء، وإذا واظبت على هذا الموقف فإننى سأحصل على الباقى فلماذا أكره إذن؟ فضلاً عن ذلك فإن الكراهية تعكر هدوء النفس فلماذا، أشعر بالكراهية؟ إننى أريد أن أظل صحيحاً.

- قل لى الآن مَنْ الجائر؟ إنك تريد أن تضرب وأن تظل هادئ النفس فما الذى سيقوله من تلقى الضربة؟ هل سيتلقى الضرب فى هدوء؟

- سيتعلم درساً.

- إذاً فما جئنا نفعله هنا هو أن نعلم العرب درساً! ما هذا.. هل أنا رجل تربية وتعليم؟

- وماذا عن أننا إذا لم نكن هنا فإن شعب إسرائيل لن يكون هناك؟.

- إننى لا أعرف، وإما أننى محق فى عدم معرفتى وإما أن هذا ليس فى منتهى الأهمية بالنسبة للإحساس العام.

- إذًا فهذا إحساسك.. هيه؟.. لو شنوا ضدك حرب استنزاف لبضع سنوات وفقدت ملابسك الداخلية بالفعل فهل ستكون رجلاً؟

- لا تطمس الأشياء.. ألا تفكر فى أنه توجد خارج مسألة رجولتى بضعة موضوعات أخرى للنقاش؟ إن الذى يواجهنا ينبغى عليه أن يحارب لأن كرامته قد انتهكت، وعلىّ أنا أن أصمد لأثبت أننى رجل، ما هذا هل نحن فى حضانة أطفال هنا؟

- تمامًا ولكن بدون حاضنة.

- إننى موقن من أن القضية أعمق من كل الشطحات التى قمنا بها هنا. إن هناك شيئًا ما.. منظورًا تاريخيًا أو شيئًا آخر مشابهًا.. وببساطة فنحن لا نقدر على فهمه وإدراكه، من المحقق أن هناك جوهرًا قوميًا بينما نعجز نحن عن الإحساس به باعتبارنا أولادًا صغارًا ساذجين.. إن هذا ما يحدث عندما.

- مهلاً، مهلاً.. إن نقيقنا الساذج يتناسب تمامًا مع بعض الأعمال المعتوهة التى نراها حولنا، إننى لا أعانى أى نقص فى الإحساس بمدركات الجوهر القومى أو ليس جلدى جزءًا من الجوهر القومى؟.. وإذا لم يكن، فما الذى يعد جزءًا من الجوهر القومى إذن؟ هل الإحساس الدينى الخاص لدى الحاخام ملوففيص؟.

- لماذا لا تعتقد أن ما نستشعره ونفكر فيه ونعمله هنا هو القمة.. هو المدى الصحيح بينما ما عداه مجرد سفسطات وتحسبات؟

- قل لى.. هل أنت من متسبين؟[1].

- دعنا من هؤلاء المعتوهين.. إنهم يثيرون سخطى ليس بما يقولون بل لأنهم واثقون من أنهم على حق.

- وماذا يقول أخوك؟

---

(١) جماعة اليسار الجديد فى إسرائيل الداعية للتفاهم مع العرب ورفض الصيغة الصهيونية للدولة الإسرائيلية.

- دعنا منه فهو من الجيش العامل، والجيش المنتصر لا يتخلى عن الأرض.. فهذه مسألة إستراتيجية فضلا عن ذلك فإنه لا بد وأن يكون عدوانيًا بسبب وظيفته ولكننى أعرفه.. إنه على ما يرام.. إنه فى جانبنا.

- حسنًا، لقد شطحنا وشطحنا فإلى أين وصلنا؟

- لقد قلنا فى البداية إننا لا نريد نتائج.. أليس كذلك؟

- حسنًا لنعرف على الأقل أين نقف.

- ألا تعرف؟

- إننى أعرف أننى أجلس الآن على القناة.. داخل موقع مسلح فى مرمى نيران العدو.. أعانى معاناة قاسية من المأساة القديمة.. مأساة الجندى البسيط الذى لا يتخذ قرارًا أويعرف حتى تنتهى المهمة التى يؤديها، إنه لا يعرف ما إذا كان هناك ما يبرر المهمة أم لا، هو لا يمكنه أن يدرك ما إذا كانت المهمة ضرورية بوجه عام أم لا إلا بعد بضع سنوات طيبة.

- حسنًا، الأساس الآن هو أن الهدف العام على ما يرام.

- هل تشعر بالإحباط إلى هذه الدرجة؟

- ستدهش لجوابى ولكننى لا أشعر بالإحباط بوجه عام.

- هل تشعر بالأمان؟

- كلا، ولماذا أشعر بالإحباط؟ إننى ذكى.. جميل.. وأنا أضاجع الحسناوات، إن هذا السيجار لذيذ الطعم، أليس كذلك؟

- هل ستسقط قنبلة؟ لقد سمعت أن الموقع البديل على طريق الإمدادات يمثل أنتحارًا حقيقيًا.

- ماذا إذن؟ هل سنظل هكذا للأبد؟

- هل جننت؟

- هل ننسحب؟

- هل جننت؟

- حرب جديدة إذن؟

- هل الموقف مجرد من الأمل إلى هذا الحد؟

- هل تعرف ماذا تريد؟

- كلاّ.. وأنت؟

- كلاّ..

- واحسرتاه على البجع إذن.. هيا بنا نفتش على الموقع الثانوى..

بوم!

الــدب.. للكاتب أورى بن أرياه[1].

صرخ رجل مستنجدًا بأعلى الشارع، كان صوته عاليًا هستيريًا يكاد يتسم بالوقاحة، كانت ابنتى التى تبلغ من العمر خمس سنوات تلعب هناك إلى جوار شجرة عالية مشروخة.

كنت أقف على مدخل مقهى متواضع بأسفل الشارع، وصل إلى سمعى الآن صوت الرجل وهو يصرخ:

الدب! الدب!

هرول بعض الأشخاص إلى الشارع، راحوا ينظرون هنا وهناك ثم رفعوا عيونهم إلى السماء، كانوا يبحثون عن طائرات، لم تكن فى السماء أية جلبة غير عادية، توقف أوتوبيس فى المحطة، كان خاليًا من الركاب وبداخله كمسارى يبدو عليه السأم.

لم ير الكمسارى شيئًا.

كانت ابنتى تلعب هناك.. بأعلى.. مع صاحباتها، بريئة فى الخامسة من عمرها،فى مقدورها أن تجرى إلى الدب وتداعب يديه، هكذا تعلمت من قصص الأطفال، لابد من إنقاذها.

---

(١) هاآرتس، ٩/ ٦/ ١٩٧٠.

هناك بأعلى تلهو جماعة من الطفلات البريئات، صرخ الرجل: الدب.. الدب!

هل دب طيب؟ كيف يمكن أن تصل الدببة إلى هنا؟ هل يسقطها العدو من الطائرات؟ هل طابور خامس خرج من داخل المغارات المظلمة؟

انظروا كم نحن أذكياء، إننا نقف هناك على القناة وسلاحنا مجهز وآذاننا صاغية.. بينما هم يهاجموننا هنا من الخلف فى مكان لا نتوقع فيه الهجوم.

إن الحرب خدعة، هذه هى القاعدة، ابنتى بريئة، فى الخامسة من عمرها، تلهو فى سعادة مع صاحباتها بأعلى الشارع، وهناك دب.

لابد من إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وبسرعة.

كيف يأتى دب إلى أعلى الشارع؟ من الذى أرسله هناك؟ ماذا يعمل؟.

بدأت عملية هروب جماعية.. أغلقت الشبابيك وراح الناس يعبئون الحقائب ويحملونها على ظهور السيارات فلقد يأتى الدب فى أية لحظة، لابد من الإسراع.

خلا المقهى على عجل وتفرق الناس فى كل اتجاه، أنزلت إحدى الجارات تقطن فى الطابق الثالث زجاجة من اللبن وطبقًا من العظام اليابسة كيما يأكل الدب ويشبع فيعود من حيث أتى، إنه جائع، والجوع يثير القلاقل، يبعث الأفكار السوداء ويؤجج الثورة فى الأمعاء يلحق المرض والألم الأبديين بالجائع، لابد من تقديم اللبن للدب.

الآن شاهدت الدب بأعلى الشارع، إنه يبدو عصبيًا.. متعبًا واثقًا بنفسه، أصيب الناس بالذعر ولم تظهر الشرطة بعد، انقطعت خطوط التليفون، هذا الوضع هو ما يريده الدب، هو دب رمادى بارد الطبع، عصبى إلى حد ما، ولكن هل هذا كل شىء؟ من أين ظهر؟ من البلدان الباردة، كيف يمكنه أن يتكيف مع طقسنا؟ إنه يرتعش، متعب، عصبى، أهو رب أسرة. جريت بسرعة لأنقذ ابنتى، كان علىّ أن أجرى مسافة غير قصيرة، ينبغى أن أحاذر من فقد قواى، يجب أن أخطط، إن عدم التنظيم هو ما يضعفنا.

وضع صاحب المقهى على المنصة أنواعًا من الحلوى وبعض البسكويت الرقيق والطويل وكذا زجاجتين من الويسكى الفاخر كيما يشرب الدب، كنت أقف هناك مغيظًا، لكن المقهى ليس ملكًا لى، إن الناس يعتقدون أنهم يهزمون أكبر الأعداء فى العالم.. الجوع.. ولكن للدب غرائز أخرى.

إنه حساس تجاه بنى البشر.. يكرههم، صحيح أنه ظمآن، لكنه يريد أن يشرب دمًا، إن من لا يفهم معنى هذا لا يفهم معنى أن يحاول رجل إنقاذ طفلته ابنة الخامسة بأعلى الشارع.

- لن يضطر إلى كسر بابى وتحطيم المنصة، قال لى صاحب المقهى.سيكون الأمر بسيطًا تمامًا، سيأخذ زجاجة أو اثنتين وبعض البسكويت، سيلتهمهما كالدب ثم يغرق فى النعاس سيعب الهواء ثم يهدأ، المهم ألاّ يكون عنيفًا وفى اللحظة التى يصبح فيها عنيفًا فإنه يحطم كل شىء، إن المقهى يقدر بمائتى ألف دولار، فما بالك إذا قيم بالروبل؟ رفع الدب ذراعيه إلى أعلى ليحطم سورًا من المدرجات يعترض طريقه، رأته ابنتى من على بعد فراحت تصفق، هل هذا دب قرقاس؟ كيف وصل إلى هنا؟ من أين ظهر؟

نبحت تجاهه بعض الكلاب فنظر إليها فى هزء، أن كلبًا ينبح لا يمكن أن يضايق دبًا، تقدم الدب على منحدر الشارع، إنه يبحث عن مقهى، كان قلقًا وعيناه معشيتان من الضوء المنعكس من على شيش البلاستيك، إلى جانب صناديق الزبالة كان أصحاب البيوت قد وضعوا أطعمة وأوان بها ماء من أجل الدب.

حطم الدب كل شىء، دب شبع أخطر من ألف عالم جائع، علّ أحدًا يذهب ليهدئ الدب.؟ علّ أحدًا يذهب ليبحث له عن الدبة؟ ألا يوجد هنا حتى مروض وحوش أوما يشبه هذا فيستطيع أن يلوح بسوط دون أن يكون مرتديًا بنطلونًا؟ إنه حتى لا يوجد أحد يرتدى بنطلونًا، كلهن فى فساتين خفيفة هفهافة، جديرات بأن يرقن فى عينيه، دب.. هو دب لكنه ذكر ذو عينين.

ما الذى يبحث عنه الدب؟

اتجه إلى المقهى وحمل زجاجة من الويسكى بين يديه، كانت النساء تنظر إليه من أسفل الشارع فى رهبة واحترام، أدار الرجال محركات السيارات وهربوا، لم يبق أحد فى الشارع، أين الشرطة؟ دائمًا عندما تحتاج لأحد تجده هو الآخر محتاجًا إلى أحد، لا يمكنك أن تلتقى بأحد لا يحتاج شيئًا، إنك دائمًا إما مساعد أحد أو مساعد من أحد، لا يمكن لك أن تنعزل.

والآن أيها الدب.. لابد من عمل شىء قبل أن تقع كارثة فظيعة ومرعبة.

على حين فجأة توقفت سيارة صغيرة وخرج السيد دافير من داخلها، استعرض الدب فى لا مبالاة دون أن يبدو عليه أنه قد تأثر بمرآه.

والسيد دافير عالم ذائع الصيت، إنه يستعد لتقديم رسالته للدكتوراه بالجامعة، هو فى حوالى الثامنة والعشرين وله زوجة وولدان.

خرجت زوجته من السيارة وجعلت تساعد طفليها على الخروج، استعرض السيد دافير الدب وكما قلنا فإن لم ينفعل بالسخط ولا بالرضا.

إن إنسانا يحصل على كل ما يريد فى سن الثامنة والعشرين لا يمكن أن يتأثر بسهولة، ساعد زوجته وهى تخرج من العربة وحمل عنها السلال، لقد عاد هو والعائلة من نزهة مجنونة على شاطئ البحر، نظروا جميعًا إلى الدب وكان الأمواج قد حملته وأتت به إلى هنا، شىء عادى، مسألة ذات وزن طبيعى، خلع السيد دافير هوائى الراديو وألقاه داخل السيارة، إنه يفعل هذا دائمًا، فالأولاد يخربون كل شىء، يخلعون هذا بدافع من الطيش وحده، وهو أمر على نفس درجة السوء التى ينطوى عليها الدب.

اصعدوا إلى أعلى، سأتحدث معه، قال السيد دافير لزوجته، غير أن زوجته فضلت أن تراقب الدب امرأة لطيفة، امرأة لطيفة تشعر بالخطر، مدام دافير امرأة دقيقة الحجم.. معتدلة القامة.. شهية تنبض بالحنان، راحت تنظر إلى الدب، بعينين واسعتين عسليتين، إن الدب يحب العيون العسلية، إنه يحب النساء. ماذا ستقول له؟ سألت مدام دافير زوجها، أى أنها تريد أن تعرف بماذا سيجيب الدب على زوجها.

سأحاول تهدئته، إن هذا شارع هادئ.. وهو يخل بحركة المرور، إنه يقف وسط الطريق مزمجرًا، يحك جسده.. انظرى كيف يحك جسده، إنه مصاب بالهوس.

أسرعوا إلى البيت يا أولاد! قالت مدام دافير دون أن تتحرك من مكانها، نظر إليها الدب فى استطلاع، خطا السيد دافير تجاه الدب وخطا الدب تجاهه، بعد قليل ستقع الكارثة المحققة.

ماذا سيقول للدب؟

- اسمع! عليك بالهدوء، إن هذا شارع هادئ متعقل، عد من حيث جئت، خذ قطعة من الخبز وزجاجة من اللبن إذا كنت جائعًا. ليس لك ما تبحث عنه هنا.

- حقًا؟ أجاب الدب مزمجرا.. حاحيه.. حيه، إن لديك امرأة شهية، إننى أشتهى اللهو بفخذ رجل ومداعبة ساقى صبية، إننى واثق من أن لها ساقين مديدتين ولطيفتين.

لم يتراجع السيد دافير، تراجعت زوجته وقد اكتسى وجهها بالزرقة وهى تتلفت حولها، سمع بعض الأشخاص ما قاله الدب وسيشهدون فى صالحها عندما يحين الوقت لذلك، ماذا سيفعل الدب بها؟ إنه غير إنسانى.

لو احتضنها لحطم عظامها، ولو قبلها لبعثر أسنانها ولو....إن دبًا بهذه المقاييس يمكنه أن يشرخها وكأنه رمح، إن هذا غير إنسانى، إنه لشئ فظيع، ستموت المرأة، سيشرخ رحمها، سيمزق أمعاءها.. رباه.. سيكون الأمر غير إنسانى لو فعل بها شيئًا من هذا النوع، خاصة بهذه المرأة.. فهى امرأة محترمة طاهرة وطيبة، امرأة رائعة هادئة وذكية، امرأة رقيقة ماذا سيفعل فيها.. وكيف؟

جذب الدب ذراع السيد دافير وفصلها عن جسده، ألقى اليد إلى بعيد، ثم هوى بلطمة على وجه السيد دافير، انهار السيد دافير إلى الأرض ولم يعد له وجود، نظرت زوجته إلى الدب وكان السيد دافير لم يكن له وجود قط.

يارب السماوات، أن هذا غير إنسانى، إن لدى طفلة فى الخامسة وسترى ماذا يفعل الدب فى امرأة طيبة، إن هذا غير إنسانى، إنه دب متوحش ذو مقاييس

هائلة، لقد قرأت فى دائرة المعارف فى إحدى المرات عن مقاييس الدب، إن هذا موت محقق للمرأة فلينصرها الله.

فى خطوتين بسيطتين أمسك الدب بها وجذبها إلى ما بين ذراعيه وبحركة من يده مزق ما على جسدها من ملابس، بديع! أعنى فظيع، امرأة بيضاء عارية كما ولدت بين ذراعى دب شيطانى غير إنسانى، إنه سيفعل فيها الآن فعلاً فظيعاً، سيقتلها، أنظروا، يارب الأرباب ترك الدب المرأة.. فسقطت على أسفلت الشارع مغشيًا عليها وساقاها مفروجتان على اتساعهما، هذا كل شىء، هل هى ميتة؟ بدا أن الدب يشعر بالرضا، لقد كانت هذه امرأة عالم طيبة، غاية فى الطيبة، عب الدب من زجاجة الويسكى فى جوفه وبدأ يخطو على منحدر الشارع، لقد أقسم شخص أنه سمعه يقول:

الآن أنزل إلى السفينة وأعود إلى سيبيريا، إن بعض البرد لن يضيرنى بعد هذا الحمام، من يستطيع العيش فى مثل هذا الطقس الجنوبى؟ أنثى "مش بطالة" ميتة، مثقوبة كالغربال.. عندما أوجه نظراتى إلى امرأة يقضى عليها بالموت، موت ناعم إلى الشيطان، من لا يريد أن يموت هكذا؟ الله يساعدنى.. لا ضرورة للاستحمام، ليست هناك قطرة دم، ماذا؟ هذه المرة لم أستحم فى الدماء؟ ولكن كيف؟

وهكذا لم تمت مدام دافير، نهضت من مكانها، كان وجهها مكتسيًا بالزرقة وهى تعرج فى مشيتها، أخذت ولديها واتجهت إلى مدخل البيت.

رباه.. إن هذا غير إنسانى.. هذا غير إنسانى، كيف هذا؟

كانت طفلتى ابنة الخامسة واقفة ورأت كل شىء، الآن تشوهت أفكارها عن الحياة، لقد فقدت كل قدرة على تقدير معايير الأشياء، إن هذا غير إنسانى.

هائلة، لقد قرأت فى دائرة المعارف فى إحدى المرات عن مقاييس الدب، إن هذا موت محقق للمرأة فلينصرها الله.

فى خطوتين بسيطتين أمسك الدب بها وجذبها إلى ما بين ذراعيه وبحركة من يده مزق ما على جسدها من ملابس، بديع! أعنى فظيع، امرأة بيضاء عارية كما ولدت بين ذراعى دب شيطانى غير إنسانى، إنه سيفعل فيها الآن فعلاً فظيعاً، سيقتلها، أنظروا، يارب الأرباب ترك الدب المرأة.. فسقطت على أسفلت الشارع مغشياً عليها وساقاها مفروجتان على اتساعهما، هذا كل شىء، هل هى ميتة؟ بدا أن الدب يشعر بالرضا، لقد كانت هذه امرأة عالم طيبة، غاية فى الطيبة، عب الدب من زجاجة الويسكى فى جوفه وبدأ يخطو على منحدر الشارع، لقد أقسم شخص أنه سمعه يقول:

الآن أنزل إلى السفينة وأعود إلى سيبيريا، إن بعض البرد لن يضيرنى بعد هذا الحمام، من يستطيع العيش فى مثل هذا الطقس الجنوبى؟ أنثى "مش بطالة" ميتة، مثقوبة كالغربال.. عندما أوجه نظراتى إلى امرأة يقضى عليها بالموت، موت ناعم إلى الشيطان، من لا يريد أن يموت هكذا؟ الله يساعدنى.. لا ضرورة للاستحمام، ليست هناك قطرة دم، ماذا؟ هذه المرة لم أستحم فى الدماء؟ ولكن كيف؟

وهكذا لم تمت مدام دافير، نهضت من مكانها، كان وجهها مكتسياً بالزرقة وهى تعرج فى مشيتها، أخذت ولديها واتجهت إلى مدخل البيت.

رباه.. إن هذا غير إنسانى.. هذا غير إنسانى، كيف هذا؟

كانت طفلتى ابنة الخامسة واقفة ورأت كل شىء، الآن تشوهت أفكارها عن الحياة، لقد فقدت كل قدرة على تقدير معايير الأشياء، إن هذا غير إنسانى.

قصص المعارك

- مكنسة على الصارى.. للكاتب يوساى جمزو
- لا لون للخوف.. للكاتب جدعون تلباز

نقدم فى هذا الجزء قصتين من قصص المعارك.. الأولى بعنوان "مكنسة على الصارى" للكاتب يوساى جمزو، وهى من نوع الرثاء الذى تعددت أشكاله للمدمرة إيلات التى أغرقتها قوارب الصواريخ المصرية أمام بورسعيد فى ٢١ أكتوبر ١٩٦٧. من قبل طالعنا نموذج لقصائد الرثاء لنفس السفينة فى الفصل الثالث وهو ما يدل على الصدمة التى أحدثها غرقها فى المجتمع الإسرائيلى خاصة بعد شهور قليلة من انتصار يونيو ١٩٦٧ وسيطرة حالة جنون العظمة أسطورة الجيش الذى لا يقهر على الإسرائيليين.

القصة التى بين أيدينا تمثل محاولة للرثاء الإيجابى. فالقصاص هنا يركز على المعركة قبل الأخيرة التى خاضتها إيلات فى شهر يوليو ١٩٦٧ بصحبة زورقى طوربيد إسرائيليين ضد زورقى طوربيد مصريين.

سنلاحظ أن القصاص يحيط طاقم السفينة بدءا من قائدها وانتهاء ببحارتها بما له من البطولة والتمجيد ويحكى فى إطار هذه الهالة عن قرار اتخذه القائد بنطح أحد زوارق الطوربيد المصرية بعد إن حدث الاشتباك بينهما عن قرب على مسافة خمسين مترًا وأن القائد قد تراجع عن القرار بعد إن نصحه أحد الضباط بتجنب هذا الأمر لاحتمال انفجار الزورق المصرى بحمولته من الذخيرة فى جسد المدمرة.

الأمر الذى يغفله القصاص هو أن قائد زورق الطوربيد المصرى قد قام بالفعل بنطح المدمرة إيلات بجسم الزورق وهو الأمر الذى أدى إلى إلحاق أضرار

جسيمة بالسفينة وإيقاع إصابات بشرية على متنها، وهو ما عطلها عن الحركة إلى أن قامت سفن النجدة الإسرائيلية بمعاونتها للعودة إلى قاعدتها فى إسرائيل.

إن القصاص لا يحكى عن زورق الطوربيد المصرى الآخر الذى اشتبك مع زورقى الطوربيد المرافقين للمدمرة فى بسالة. لقد لاحظنا فى الفصل الأول أن أبطال البحرية المصرية الذين أغرقوا إيلات قد أهدوا انتصارهم إلى قائدى زورقى الطوربيد الشهيدين عونى وممدوح.

القصة تدخل فى باب الأدب التوثيقى الذى يحاول التهوين من خسارة المدمرة بالحديث عن أنتصار سابق لها حيث صدرت القصة فى الذكرى السنوية الثالثة لإغراق المدمرة.

أما القصة الثانية فهى بعنوان "لا لون للخوف" وهى تحكى عن تجربة طيار إسرائيلى يقود طائرة استطلاع صغيرة يتلقى أمرا أثناء عمليات يونيو ١٩٦٧ بأنتشار طيار سقط بطائرته بالقرب من المواقع المصرية فى شرم الشيخ وهى نموذج للقصص التى تحاول تقديم نماذج للبطولة العسكرية.

مكنسة على الصارى.. للكاتب يوساى جمزو (رثاء للمدمرة إيلات)

دلف المقدم إسحق ذو الشعر المقصوص والعينين الزرقاوين المستظلتين بحاجبين كثيفين فى لون الفحم .. إلى قمرته على ظهر المدمرة إيلات. دخل إلى القمرة هاربًا من الجو السائد خارجها وقد عقد النية على أن يخلد إلى النوم.

غير أن اليقظة المشحونة بالتوتر.. الوليدة الشرعية التى تنجبها أسابيع التأهب الأخيرة التى تسبق الحرب.. تغلبت عليه. فقد كانت أشد عزمًا منه وأكثر تصميمًا. لزم القبطان الشاب قمرته وقد اكتست عيناه بلون الدم عازفًا عن مبارحتها.

كان يعلم أن خروجه إلى أى مكان على سطح الباخرة.. إلى حجرة الماكينات.. إلى منصة القيادة.. إلى حجرة العمليات.. إنما يعنى شيئًا واحدًا هو التعرض لنظرات الفتيان التى تسأله فى صمت.. متى؟ متى نفعل شيئًا؟ إن الحرب كريهة ومدمرة ولكن لابد من خوضها.

لقى بجسده على فراشه الوثير الذى يمتص هزات المدمرة، وهى تمخر البحر وراح يحلق بذهنه فى آفاق من الأفكار السوداء حتى طلع عليه الفجر.. مع أول خيوط الفجر وصله من قاعدته أمر باللاسلكى يقول.. اتجه بالمدمرة إلى الميناء.

بعد بضع ساعات فقط من تلقيه هذا الأمر.. شاهد من خلال الكوة الزجاجية قائد مجموعته البحرية يصعد مع هيئة القيادة إلى المدمرة إيلات نفسها.

مهمة جديدة!.

قال القائد ذلك وهو يدخل إلى القمرة يبرم خريطة بحرية بين يديه.

وعندما غادر القائد المدمرة.. اصطف فتيان المقدم إسحق أمامه ينصتون إليه فى اهتمام وهو يلقى أوامره عليهم فى إيجاز.

وبعدها أندفعت المدمرة إيلات جنوبًا صوب الهدف المحدد لها.

فى اليوم التالى عندما أشرقت شمس السابع من يونيو فى بريق وهاج يعشى العيون.. جاءه إبلاغ لاسلكى يقول.. هناك غواصات مصرية تجوب البحر على طول الساحل الإسرائيلى.

ألقى المقدم إسحق على خريطته البحرية نظرة أدرك معها أنه يبعد عن مكان الغواصة مسافة عشرين ميلا بحريًا فقط.. فأصدر أوامره إلى الفتيان بتوجيه المدمرة بأقصى سرعتها نحو المنطقة التى شوهدت الغواصة تسبح فيها.

فى غضون لحظات كان المقدم ورجاله يعضون على نواجذهم فى إحساس من خيبة الأمل فقد وجه إليهم قائد المجموعة أمرًا بمعاودة الإبحار جنوبًا تجاه الهدف الأساسى.

بعد انقضاء شهر على هذا اليوم.. صدرت الأوامر إلى المدمرة إيلات بالإبحار للقيام بمهمة الدورية على الساحل الشمالى لسيناء بين رمانة والبردويل وفى رفقتها زورقان من زوارق الطوربيد.

من على سطح المدمرة كان الفتيان يشاهدون قطع الأسطول السوفيتى ترسوفى ميناء بورسعيد. وأثناء إبحارهم اكتشفوا لاجئًا يحاول الهرب من سيناء فى قارب صيد وبعد قليل سمع المقدم إسحق حجرة العمليات تبلغ منصة القيادة بأن زورقى الطوربيد المرافقين يبلغان عن ظهورى هدف بحرى.

آلو.. هناك شىء ما.. شىء ما يقترب. حوّل.

ولمزيد من التثبت يأمر المقدم إسحق قائد الزورقين بالاقتراب من الهدف للتعرف عليه. وبعد لحظات يجيب الزورقان:

هدف آخر أمامنا يا سيادة القائد.. هدف آخر!.

وعلى الفور يتحول المقدم إسحق إلى كتلة من النشاط والحركة وكأنه ماكينة شحمت تشحيمًا جيدًا.

أصدر إلى منصة القيادة الأمر المعهود فى حالة الالتحام.. " إلى مواقع القتال.. أنتشر ".

وأتبعه بأمر آخر إلى رجال المدفعية لتجهيز المدافع الهائلة الرابضة على سطح المدمرة.. ثم وجه أمرًا ثالثًا إلى القائمين على توجيه السفينة والتحكم فى دفتها بإغلاق المنطقة والاقتراب بقدر المستطاع فى الظلام من الأهداف المعادية المتحركة.

جعلت المدمرة تتحرك فى مهل وحذر وربانها يتابع مدى اقترابها ليضمن لها مسافة أمان كافية تفصلها عن العدو.. كان يخشى من أن يكون المصريون قد أرسلوا زوارق الصواريخ. كانت الأفكار تتحرك فى ذهنه بسرعة وهو يقلب الاحتمالات.. علّ هذه الأهداف شىء آخر غير زوارق الصواريخ.. ولكن ماذا يمكن أن تكون.

كان البحر منبسطًا فى هدوء.. يرسل أمواجه فى تكاسل لتلامس وجنتى المدمرة الفولاذيتين فى ترفق وحنان.. لكن الظلمات الكثيفة المتراكمة فى الأفق كانت تخفى أسرارًا وأخطارًا.

فجأة دوى عبر سماعة اللاسلكى صوت النقيب إيلى هجينجى قائد الزورقين يسأل فى حماس.

- هل ننالهم؟

وأجاب المقدم إسحق بصوت أشبه بالزئير.

- أى سؤال هذا.

وبعد ثوان تكشف احتمال رهيب أمام المقدم.. لقد وجد نفسه فى وضع ميئوس منه تمامًا.. كان النقيب إيلى قادمًا بزورقيه من الجنوب.. والمقدم إسحاق هو ورجاله فوق المدمرة مقبلين من الشمال. أما المصريون فكانوا رابضين لهم فى الوسط.. على مسافة ألف وأربعمائة ياردة من المدمرة وألفى ياردة من زورقى إيلى.

هذا هو الموقف يا سيدى.. هل تفهم؟

كانت المعضلة واضحة بكل ما تحمل من هو ل ورعب.. فإما أن تفتح المدمرة نيرانها فتصيب الزورقين المرافقين.. وإما أن يلتزم السكون ويدع المصريين يهاجمون.

وجاء صوت إيلى فزعًا عبر اللاسلكى.. ماذا نفعل.. ماذا نفعل بحق جميع الشياطين؟ قل لى ماذا أفعل؟

- اتخذ لك موقعًا.. واحرص طيلة الوقت على أن تكون بينى وبين العدو.. لوظل العدوبيننا فقل علينا السلام ولتلقفتنا الملائكة بعد قليل. وسادت لحظات صمت وأنتظار رهيب.. كان المقدم إسحق خلالها يقرص أسنانه فى حنق مكظوم.

وتحرك المصريون.. استداروا وفتحوا النيران على زورقى إيلى.. نيران مركزة تنطلق بكفاءة. ويجيب إيلى على النيران. وفجأة تحدث المعجزة. إذ يلاحظ المقدم إسحاق أن أحد الزورقين المصريين يغادر موقعه ويتجه إلى بورسعيد بينما يصوب الآخر ناحية رمانة ويصرخ المقدم إسحق فى لهفة. إيلى ! إنهما ينفصلان.. خذ أنت الشرقى وسآخذ أنا الغربى.. وتنطلق من على ظهر المدمرة قذيفة إنارة تضىء الزورق المصرى الذى كان مغلفًا بالظلام.. وفيما كانت طلقات الإنارة تتتابع راح المقدم إسحق يحادث نفسه فى رضا" ها هى أحاديثنا الفنية النظرية التى تدور فى مطعم الضباط.. الأحاديث التى تقوم فى نصفها على الخيال حول مسائل التكتيك القتالى فى البحر.. تؤتى ثمارها أخيرًا إنها ثمار لن يستمرئها المصريون بالقطع".

وقطع حبل أفكاره صوت مدو انطلق من حنجرته. المدافع حرة !.. وهذا يعنى أمرًا بإطلاق النار فور ظهور الهدف.

شاهد المقدم إسحق أثناء وقوفه على منصة القيادة إصابة مباشرة.. قذيفة من أحد مدافعه عيار أربعين ملليمترًا تخترق جسد الزورق المصرى.. ومع ذلك تلاحقت أوامره إلى طاقم المدفعية بتركيز النيران وإلى طاقم الدفة بالاقتراب من العدو نظرًا لصغر حجم الزورق المصرى ومقدرته على المناورة فضلا عن حُجب الظلام التى تستره.

وبعد تفكير يقرر المقدم إسحق إضاءة أحد الكشافات على ظهر المدمرة وتسليطه على زورق العدو مع كل جسامة الخطر الذى ينطوى عليه هذا العمل.

وينكشف الزورق المصرى وكأنه يسبح فى النهار.

ويدوى صوت المقدم إسحق.. أطلقوا النار !.. ثم يلتفت إلى مساعده أورى مخاطبًا إياه.

- أورى ! سأنطح الزورق.

غير أن أورى يعترض فى حسم.. ولكن قد ينفجر الزورق !.

وفى الواقع فإن زوارق الطوربيد تحمل شحنات غير هينة من الذخيرة والوقود.. ولا يعلم أحد من الذى كان سيخرج منتصرًا من المعركة إذا ما أنفجر الزورق والمدمرة الملاصقة له.

ويستعمل أورى حق الفيتو.. لا بد من التخلى عن فكرة المناطحة! يومئ إسحق برأسه موافقًا على الاعتراض ومتخليًا عن فكرته.

من على منصة القيادة.. وعلى ضوء كشاف المدمرة.. يشاهد المقدم إسحاق طلقات مدافعه الرشاشة والقذائف من عيار أربعين ملليمترًا تمزق جسر القيادة على الزورق.. وفى أقل من الثانية تتابع عيناه قائد الزورق وقائدا دفته يقاومان الغرق فى سباحة يائسة بين كتل اللهب الطافية على سطح الماء.. وبعد لحظات يختفى الرجلان فى الأعماق.

راح إسحق يحادث نفسه متسائلا.. من كان قائد الزورق. ماذا كان اسمه؟ وهل يعرف بصورة شخصية أننى عدو له؟ ومن أنا؟

ويدوى صوته ثانية والمدمرة على مسافة خمسين مترًا من الزورق أطلقوا النار! استجابت له مدافعه وتتابع هديرها.. وعلى الفور دوّى أنفجار هائل وراحت المدمرة تهتز فى عنف وتتمايل على جانبيها.

وسرعان ما اتضح كل شىء. لقد انفجر الزورق المصرى. وأطاح الانفجار بالمقدم إسحاق من موقعه فوق منصة القيادة.

ووقف المقدم والغيظ يطحنه وهو يتلقى التقارير الأولى عن خسائر السفينة. أصيب حورشيق موجه الكشاف بشظية فى جبهته.. فى المعدات لم يصب أى جهاز سوى جهاز توليد الطاقة الرادارية، وتولى مهندس الرادار تشغيل مولد آخر فور اكتشافه أنقطاع الحرارة عن الرادار.

وبعد قليل اتضح أن أحد رجال المدافع الرشاشة قد أصيب بطلقة من رشاش الزورق المصرى وأنه قد أسعف فى مكانه واستمر فى أداء واجبه.. كذلك تبين أن ستة من الفتيان لحقتهم إصابات طفيفة من الشظايا وأنهم أسعفوا ويواصلون عملهم فى روح عالية.

حدث هذا قبل انتصاف ليلة الحادى عشر من يوليو بثلاث دقائق. ومع هذا فلم تكن الإشكالات قد انتهت. فقد ظهر أن أحد الجرحى يعانى من ارتجاج فى المخ نتيجة سقوط لوح من الفولاذ يزن ثمانين كيلو جرامًا على رأسه.. ولحسن حظه فقد كان يضع خوذته المعدنية فوقه.. وأن طبيب السفينة قد تولى علاجه ورعايته.

لكن الطبيب ذاته كان يعانى من مشكلات خاصة. كانت مشكلات الملازم طبيب دوفى ذى الستة والعشرين ربيعًا.. من نوع مختلف تمامًا.. فهو باحث أكاديمى.. وكان المفروض أن يحصل على درجة الدكتوراه فى الطب فى الاحتفال الرسمى الذى سيقام بالجامعة العبرية بعد يومين. ولم تكن هذه مشكلته وحده.

فقد كان الملازم صاصا ابن الثالثة والعشرين.. هو الآخر طالبًا، وكان المفروض أن يحضر فى الغد حفل التخريج ليتسلم شهادة البكالوريوس فى الهندسة الإلكترونية.

أما وقد وقعت المعركة فلقد بات واضحًا أمام الشابين أنه ليس لهما أن يحلما بالاشتراك فى احتفال التخريج النهائى. كانت هذه الحقيقة تحز بصفة خاصة فى نفس الدكتور دوفى.. كان المفروض أن يختتم بعد يومين فترة دراسية امتدت سبع سنوات.

على السفينة كان هناك شخص آخر يعانى مشكلة خاصة.. كان المساعد كلمنت على موعد فى روما بعد يومين مع أمه العجوز التى لم يلقها منذ سنتين. كان قد رتب نفسه على الحصول على إجازة خاصة لهذه المناسبة.

ولكن منذ نشب القتال البحرى أصبح واضحًا للمساعد كلمنت أن الحسرة وخيبة الأمل لن تكونا وقفًا على والدى الدكتور دوفى وهما ينتظران فى خوف وقلق بعد يومين فى قاعة الاحتفالات بالجامعة.. وأن الحيرة والألم لن يكونا من نصيب والدى المهندس صاصا وحدهما.. فإن أمه هى الأخرى ستكون نهبًا لهذه المشاعر وهى تترقبه على غير طائل فى ركن من أركان مطار روما الفسيح. غير أن الأمور انتهت بصورة تخالف ما توقعه الثلاثة أصحاب المشكلات.

فمع بزوغ فجر اليوم الثانى عشر من يوليو سنة ١٩٦٧ وصلت المدمرة إيلات إلى ميناء أشدود تحمل على جسدها آثار بعض الجروح ولكنها تحمل فى نفس الوقت مكنسة مشدودة إلى الصارى.. علامة الانتصار فى التقاليد البحرية.

وفى العاشرة من صباح نفس اليوم كان المقدم إسحق مستلقيًا على فراشه الوثير فى قمرته على ظهر المدمرة والترانزستور يحمل إليه صوت المذيع عميق بيرى يعلن على العالم خبر انتصار إيلات فى رمانة.

فى الرابعة بعد الظهر كان الملازم صاصا يقف فى إحدى قاعات المعهد الفنى بحيفا على منصة الشرف يتسلم شهادته ويصافح الأساتذة وعيون والديه تتابعه فى حبور و رضا.

وفى نفس الساعة من اليوم التالى كان الملازم دوفى يحصل على لقب دكتور فى الطب فى قاعة الاحتفالات بالجامعة العبرية بالقدس.

ولقد وفر دوفى على نفسه بحضوره الاحتفال.. مشقة تقديم رعاية عاجلة لوالديه معًا.

وفى ذات الوقت.. كانت هناك امرأة يهودية فى شارع بولونيا بروما تحتضن بذراعيها وبدموع الفرح المساعد البحرى كلمنت.

- أريد أن أقول لك شيئًا يا ولدى.

قالت العجوز وهى تحتضن الولد ذا الأربعين عامًا وهو منهمك فى ضمها وتقبيل جبهتها.

- لقد سمعت اليوم من الراديو الإيطالى عن الأنتصار الباهر الذى حققته سفينة إسرائيلية اسمها "إيلات" أو ما شابه ذلك.

فما رأيك فى هذا يا صغيرى؟

ويجيب الصغير وهو يضع قبلة أخرى على جبينها.

آى إنك رائعة يا أماه.

كان ذلك فى عام ١٩٦٧.

وبعد ذلك عرفت المدمرة إيلات الآلام والآهات. عرفت كذلك النهاية المريرة. عرفت رايات الحداد. ومع ذلك فإن قدامى العاملين على المدمرة إيلات.. أولئك الذين بقوا بعد أن انتهى كل شىء.. مازالوا يصرون من خلف حجب الحزن والأسى وستائر الألم.. على عدم إثبات ذكريات معركة إيلات قبل الأخيرة.. معركة الرمانة.. بين ذكريات حياتهم عليها.

لا لون للخوف.. للكاتب جدعون تلباز

بقدر ما كان يعلو كانت السماء تعلو معه.. وبقدر ما كان يبتعد كان يبدو لها أن لونها يشحب ليصبح كلون الذهب المعتم أو الكهرمان.

قال لنفسه.. هذه نتيجة للمعانى وبسبب لون النظارة وأنحدار الشمس.

تبعًا للظل الذى كان يتبعه على الرمال عند مروره فوقها.. كان يمكنه أن يلاحظ أن الشمس قد أنفلتت من كبد السماء فى طريقها إلى الغرب.

إن النظر فى عينها يعى أن تعشى عيناه وأن يضل فى الفضاء وأن يفقد سيطرته وتحكمه فى الطائرة. كان الجو مكفهرًا بعض الشىء والضوء ساطعًا وساخنًا رغم أن الخريف كان يعم كل شىء. كانت راحتا يديه العريضتين اللتين تغطيهما بعض الشعيرات الصفراء بارزتين من كمى رداء الطيارين الذين يلبسانه ويتمسكان بعجلة القيادة فى ثقة. كانت جلسته منتصبة وعيناه يغلفهما الضباب وإن كانتا تنظران فى حدة إلى الأفق. كان وجهه رقيقًا وفتيًا يكسوه إحساس من الاطمئنان.. لقد حقق من قبل مئات الساعات من الطيران.

فى أسفل بدت سيارات الاستطلاع المتقدمة وهى تتواثب داخل المضيق.. وعلى مسافة ثلاثة كيلومترات خلفها كان يتحرك تشكيل اللواء فى صف طويل ممتد وهو يخلف وراءه سحبًا كثيفة من الغبار. كان لون المضيق فى صفرة الصحراء

الساكنة. ولكن سكون الصحراء كان سكونًا كاذبًا.. لقد كان سكونًا يختزن فى جوفه الجيشان المتجمد الذى شوّه فى ضراوة وجه الأرض عندما تقيأت فلفظت من أمعائها هذه الشنائع التى تأخذ شكل المضايق المحصورة والفجوات والمنحدرات الصخرية المتوحشة وهضاب الجرانيت المعتمة. إن هذه هى أبعد المناطق التى أمكنه ارتيادها حتى الآن فى اتجاه الجنوب. الآن اقتربت الجبال فظهرت بنية اللون ضاربة إلى الحمرة.. منها المدبب ذوالنتوءات ومنها المستدير ذوالمنحدرات المعتدلة وجميعها مكفهرة تبث فى نفس من يراها الروع والفزع.

أدار الطيار رأسه إلى الخلف.. " أيها جبل سيناء "؟.

- ماذا؟ أجابه الكشاف وهو يرفع صوته.

جذب الطيار الفرملة بعض الشىء فخفتت ضوضاء المحرك.

- أين جبل سيناء هنا؟

نظر إليه الكشاف بعينين خاويتين من التعبير ومطّ كتفيه إلى أعلى ثم عاد ينظر إلى أسفل.

سؤال أبله. تمتم الطيار وكأنه قد ارتاد هذا المكان من قبل. إن جبل سيناء من الناحية الأخرى كما تقول الخريطة.

فقدت الطائرة البيبر بعض ارتفاعها. زاد الطيار المحرك وجذب عجلة القيادة جذبًا خفيفًا ناحية بطنه. هو الآن يحلق على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم.

بدت على حافتى المضيق بعض آثار الزرع الذابل فى شكل بعض أشجار الأثل والنخيل المبعثرة هنا وهناك.

طاف بذهنه موسى. القوم يجولون فى هذه الصحراء الجدباء وموسى يهبط إليهم بالألواح ويفض احتفالاتهم من حول العجل.

أطلّت عربة جيب منفردة من داخل المضيق وتباطأت للحظة ثم تقدمت فوق مدق ترابى ممتد أسفل الروابى. غرس الكشاف عين نسر فى المنحدرات الصخرية كانت المنطقة نظيفة. لم يكن هناك ما يُبلغ إلى تشكيل اللواء قاظت

القمرة بالحرارة. وجه الطيار فتحات الهواء ناحية وجهه وجعل يستمتع بنسائم الهواء البارد. كان لا يزال متيقظ الحواس رغم أن هذه كانت الساعة الرابعة التى مضت عليه وهو فى الهواء.

تدحرجت نظراته على لوحة الأجهزة ثم ثبتت على البوصلة. إنه يطير الآن إلى الجنوب الشرقى والريح طيبة. لولا تشكيل اللواء الذى يتحرك بالخلف فى تثاقل وفى تمام التأهب القتالى.. لما يتصور أحد أن هناك حربًا.

لم تكن قد أطلقت تجاهه قذيفة واحدة بعد. إننى لا أتمنى هذا.. تمتم مفكرًا. لست من أولئك المحاربين. ولكن إذا حدث هذا فليحدث. فأنا مستعد.. أسر لنفسه، وهو يضع يده فى جيبه متحسسًا بلا وعى قطعة النقود المعدنية المثقوبة التى صكت سنة مولده والتى دأب على حملها معه دائمًا.

لا يكاد أحد يتصور الآن أنه كان يجلس منذ خمسة أيام فقط على كرسى دوار فى مكتب صغير بالقدس منكبًا على دفاتر الحاسبات.. موظفًا يستعد فى المساء لامتحانات السنة الأولى بالجامعة. هذا ما لم تطرق نيرة باب بيته.

ليست فى نفسى ضغينة ضدها.. تفكر مبتسمًا. بالعكس.. لا يمكننى أن أعتبر رفقتها لى مضيعة للوقت. ذكرته ثنايا الأرض بالقرب من المنحنيات برقدتها المقوسة. كان من عادتها فور دخولها حجرته أن تلقى بحقيبة الرسوم الكبيرة فى زاوية الحجرة، ثم تلقى بنفسها بين ذراعيه بينما شعرها الطويل ينسكب على وجهها وساقاها الطويلتان تنطويان. كان عدم الاتساق الهندسى فى جسدها وهى فى ذلك الوضع يرهق عينيه ويدهشه تمامًا مثل الأرض المفروشة تحته الآن. لقد استدعى خلال الأشهر الأخيرة عدة مرات بصورة مفاجئة لينضم إلى وحدته.

كان هذا يحدث كلما التهب الموقف على الحدود. ولكن الأمر لم يكن جديًا فى أى من تلك المرات.. وعادة ما كان يتم تسريحه بعد بضع ساعات. ولكن عندما تلقى أمر الاستدعاء هذه المرة شعرت نيرة بشىء مختلف.. فراح يسخر من مشاعرها ويبدى استخفافه بحاستها السادسة.

قطعة العملة. وأيًا كان الأمر.. قال لنفسه.. فإنه يحسن ألا أفكر فى هذا أكثر مما ينبغى. ليس هذا صحيحًا.

ظهرت الآن عربات الجيب وعربات نقل الجنود منتشرة كالجراد على سطح الأرض.إن هؤلاء السائرين بأسفل لا يمكنهم أن يقدروا ما الذى تفعله هذه المسافة فيك.. جعل الطيار يحدث نفسه.. المسافة التى يمكنك أن توجدها بينك وبين الأرض.. إنهم لا يدركون مدى الحرية الذى تحصل عليه عندما تنفصل عن الأرض وتنظر إليها من أعلى.

إن هذه أشياء بديعة ما من كلمات تقدر على التعبير عنها. عندما نظر إلى السماء لم يستطع ألا يشعر بالارتباك.. لقد أحس وكأنه غاز فظ متوحش ينتهك صمتها المقدس بضوضاء محركة. ولكن ما كان فى مقدوهة أن يطيب خاطرها حتى ولو كان أن يسمر نفسه فيها فجأة كالنسر الذى يجمد عن الطيران فى العلى بين السماء والأرض.. الأمر الذى كان يمكن أن يمثل تجربة رائعة. عندما مالت نظراته إلى أسفل شاهد الجيب المنفردة تتوقف إلى جانب منحدر عريض أبطأ الطيار وهبط بضع مئات من الأقدام.

ماذا يحدث هناك؟ لماذا توقفوا؟ وبينما هو يفكر فى الاتجاه نحوهم إذا بصوت يقتحم سماعتيه.

- حاولنا الاتصال بك من القاعدة ولم ننجح.. قال الصوت فى برود وأحس الطيار أن أذنيه تصرفان.. إننى الآن فوق إيلات على ارتفاع ثلاثة. لقد حلقت خصيصًا لكى ألحق بك.

- ماذا هناك؟

- كف عن العمل مع اللواء واخفض من ارتفاعك.

- ماذا حدث؟

- أسقط زميلان.. تقدم لتر ماذا يمكن عمله. لقد شوهد أحدهما على الأقل وهو يهبط بالمظلة.

- أين حدث هذا؟

- بالقرب من مواقعهم. شرم الشيخ وراس نصرانى.

- هل هذا كل ما تستطيع قوله لى؟

- لا أعلم أكثر منك حاذر من نيرانهم المضادة. أرجولك التوفيق.

سكنت السماعات وانتهى الاتصال. وجه الطيار نظرة خاطفة تجاه صندوق الأجهزة الكبير الموجود إلى جواره ولبرهة وجيزة كان ذهنه خاليًا من أية فكرة ثم التوت شفتاه علامة السخرية.

كيف تجد إبرة فى كوم من التبن. كيف يتوقعون أن تحدد شيئًا فى هذه الصحراء الضخمة إذا كانوا يعطونك توجيهًا على هذا القدر من الغموض؟

وفى نفس الثانية اختفت علامة السخرية من على شفتيه وشعر فجأة بالدم بغذ السير فى عروقه. التفت إلى الخلف وقال.

هل أنت مربوط جيدًا؟.. إننا سنرتفع؟

إلى أين.. سأله الكشاف؟

إلى أسفل.. إلى طرف شبه الجزيرة.. "لالتقاط رفاق أسقطوا".

لاحظ الطيار دهشة الكشاف وفتح الفرملة إلى آخرها. ارتجفت يده رجفة خفيفة وسحب شهيقًا من فمه. لقد أزعجته نظرة الكشاف. من أين للرجل الذى لم يكن قط طيارًا أن يعرف ما إخوة الطيارين؟

قال الطيار لنفسه. كيف يعرف أن إنقاذ طيار يعد عند الطيار أمرًا أعظم من إنقاذ أخيه؟

كانت الطائرة فى ارتفاع مستمر. وكان الطيار يراقب لوحة الأجهزة. أصبح الآن على ارتفاع أربعة آلاف قدم وأصبح الصعود أكثر بطئًا.

سيمر وقت طويل حتى أصل إلى عشرة آلاف. من الأفضل أن أقبل عليهم من علّ ولهم عندئذ أن يقلوا النار كيفما شاءوا. ولكن ممتعًا أن يقبلوا على بالميج. لن يكون ذلك ممتعًا ولا مسليًا على الإطلاق.

زم شفتيه ونظر إلى الأمام.

من هذه اللحظة لا شىء مضمون ولا شىء مؤكد إنك معزول وراء الخطوط إذا كان العدو مازال فى مواقعه ومصريك بيدك وحدك.

كان بمقدوره أن يحس بالعرق الذى يعتصر على راحته الممسكة بعجلة القيادة لم يكن فى الواقع مندهشًا. كان فى الحقيقة يشعر بالراحة.

لقد أدرك الآن أنه كان يتوقع هذا منذ الصباح.. منذ أحس لأول مرة بالتوتر فى راحة يده. إن هذا الإحساس لم يضلله قط. كانت خلايا مخه غاية فى الصفاء والتيقظ.. وفى خضم أنفعاله ابتسم لفكرة إنه كان يخشى منذ بضع دقائق من أن يضطر إلى أن يخوض الحرب كلها كمجرد أداة اتصال بين الدورية المتقدمة، وقائد اللواء أو كسائق لعربة إسعاف طائرة تقل الجرحى والقتلى إلى الشمال. إن الحظ يبتسم لى وإذا لم يفارقنى فإننى سأنجح فى إنقاذهما. وهنا كف عن الابتسام وعض على شفتيه ووجه نظرة إلى الأمام.

كان المحرك يعمل بكل قوته. والبيبر تهتز وتصعد فى عناد قدمًا بعد قدم. مثلها مثل البغل الهرم.

وبقدر ما كان يرتفع بقدر ما كانت ملامح الأرض تنطمس وتختفى. المضايق والوديان والربى والفجوات.. كل هذا فقد صورته وابتلعته البيداء الهائلة التى أخفت من ذلك الارتفاع كل نتوء وكل غور من مسطح أصفر واحد.

من هذان اللذن أسقطا؟ راح يفكر فى دهشة. يبدو أنهما اثنان من طيارى المستير ممن كانوا يقصفون المواقع. ولكن مَنْ هما؟ من الصعب أن أتصور أنهما من الثعالب الهرمة. ولماذا لا أتصور هذا.

إن أى شىء قابل للحدوث.. حتى الثعالب الهرمة لا تصبح محصنة إذا تخلى عنها الحظ. كان يتمنى أن يكون على قيد الحياة.. فليس من الممتع أن يحمل أمواتًا. مثلما حدث له بالأمس عندما حمل أحد القتلى إلى الشمال ذلك أنه لم ينتبه إلى أن البطانية قد اشتبكت بالباب وعندما كان فى عزم الهبوط انفتح الباب واندفعت الريح إلى الداخل فأزاحت البطانية من على وجه القتيل، عندما نظر إلى الخلف ورأى الرأس الملفوفة بالضمادات المبقعة بالدم والعينين الجامدتين دارت أمعاؤه فى بطنه وكاد أن يفقد السيطرة على الطائرة. أى عبث يكمن فى نقل القتلى.. ما حاجتهم إلى الهرب. إذا كانوا قد أصبحوا بالفعل فى أعلى.. فى عالم الحقيقة؟

انخفضت الحرارة فى القمرة وكان عليه أن يقفل فتحات الهواء ليتفادى الهواء البارد الذى بدأ يلف إلى الداخل. مرة ثانية ألقى بنظرة خاطفة على لوحة الأجهزة كل شىء على ما يرام.. راح يتمتم وهو يتحسس عملة الحظ فى جيبه. كان القرش قد فقد قوته الشرائية عندما كان صبيًا. وما كان يمكنه أن يشترى به قطعة من الحلوى إلا بصعوبة ولكنه لم يفقد إيمانه به. فهو لم يطر قط بدونه.. كان القرش دائمًا فى جيبه.

دفعة واحدة بدأ يفكر فى الخوف. لا لون للخوف. ولكنه ذو رائحة. وأنت لا تشعر به إلا إذا فكرت فيه. لقد كانت لديه طريقة يحس فيها باللحظة التى سيتعرض فيها لشىء غير طيب. كان هذا يتم تبعًا للطنين ذلك الطنين الذى كان يحذره من الخطر الوشيك. طنين يصدر من كاشف الألغام الموجود داخله. إن الطنين لا يتردد الآن ومن ثم يمكنه أن يفترض أن القرش يعمل عمله هذه المرة كذلك. ولكن من الأفضل ألا أفكر فى هذا.. قال لنفسه.. ونظر إلى البيداء المفروشة تحته. كانت شفتاه مشققتين فمرر لسانه عليهما ليبعث فيهما الرطوبة.

من الغريب أن تكتنفك هذه الأفكار فجأة.. راح يفكر.. بخاصة وأنت مكلف بمهمة إنقاذ حيث ينبغى أن يكون كل ما تفكر فيه هو كيف تعمل على إنقاذهما بسرعة ودون أن تصاب. ولكن كل هذه الأفكار تترى بسبب الارتفاع والعزلة.. ذلك

أنك عندما تكون بأعلى فإنك تبدأ فى التفكير على هذا النحو. إن الرب يتغلغل بصورة أكبر فى وعيك إنك أقرب إليه الآن وربما كان ذلك أيضًا بسبب المسطح الأصفر الضخم الذى يمتد تحتك ويثير داخلك ضغطًا خفيًا كدرًا. إنك لم تك قط متدينًا. والآن يعود إليك الكتاب المقدس مع موسى وهارون وقورح.

أيهم جبل سيناء؟ وما أهمية أن تعرف؟ هل ستهبط فوقه كى تبحث عن بقايا الألواح؟

السماء الآن مكونة من ألوان زرقاء وبيضاء وقرمزية. لم تكن تتصور قط أنه يمكن أن يتوفر مثل هذا البهاء المتنوع. كأنهم أخذوا الجلد وغمسوه فى حوض ضخم مملوء بالألوان ثم علقوه بأعلى ليجف. إن كل هذا راجع للعبة الخداع التى تمارسها الشمس. إنك لا تستطيع أن تنظر إليها دون أن تصاب بالعمى. سماء خاوية. لا تبدو فيها ميج ولا ابن ميج قذر.

سماء خاوية ونظيفة. كان من عادتنا فى هذا الموسم الخروج لقطف النرجس.

كان الجو يعمر بالأضواء وكان تنوع الألوان الهادئ الساحر هذا يطل من السماء. يجب أن آخذ نيرة إلى تلك المناطق لأريها أين كنت أتجول عندما كنت صبيًا. من المؤكد أننى لن أجد المستنقع. سأجد مساكن. من المؤكد إنهم قد وصلوا إلى هناك. إنهم لا يتركون المستنقعات إنهم يجففون المستنقعات، اليوم بالمساكن. إن الحضارة دائمًا ما تكون مذنبة. خلف تضاعيف النور المحلقة لاحظ فجأة بقعة زرقاء فى وسط الصحراء.. بقعة صغيرة غامضة فى حجم قطرة الحبر. لكنه كلما اقترب كانت الرؤية تتضح وما كان ذلك وسط الصحراء، بل كان طرفها وما كانت تلك بقعة من الحبر، بل كان البحر الأحمر وذراعاه اللتان تحتضنان جنبات شبه الجزيرة كسنى مذراة ضخمة. هما الآن يطيران على ارتفاع عشرة آلاف قدم ومعظم الصحراء خلفهما.

انحنى الكشاف الطويل الصموت إلى الأمام وأشار قائلا.. مصر! ظل الطيار جالسًا بدون حركة باردًا هادئ النفس بينما تلكأت نظرة الكشاف على كتفيه العريضتين وعلى رأسه المنتصبة.

لم يلاحظ الكشاف وهو بالخلف أن عينى الطيار قد ثملتا من سحر المشهد وأنه قد نسى للحظة طويلة السبب الذى من أجله وصل إلى هنا.

- هل اكتشفت المواقع؟ قال الطيار وهو يفيق من السحر.

- كلا. أجاب الكشاف. نحن غاية فى الارتفاع. اهبط قليلا.

أقفل الطيار الفرملة وترك مقدمة الطائرة تهوى إلى أسفل.

بدأت البيبر تفقد ارتفاعها فى سرعة فجأة نطقت السماعات فى أذنيه واستوعب النداء الموجه إليه. من يمكن أن يكون هذا؟.. إننى أبعد من أن أتلقى إشارة من اللواء وعندما ألقى نظرة إلى جانبه رأى بيبر تقترب منه فى اتجاه الجنوب الغربى.. يقودها أحد رفاقه فى السرب.

- إننى عائد إلى القاعدة. قال الرفيق.. " لقد بحثت عنهما حوالى ربع الساعة ونفد الوقود منى ".

- أين بحثت؟

- قريبًا من ساحل البحر.. تتبعت الآثار.

- كيف تبدو؟

- كأنها آثار عربة جنود مصرية خرجت للبحث عنهما.

- هل اكتشف أى شىء؟

- لا شىء. لكن من المؤكد أنها فى هذه المنطقة هذا إن لم يكن المصريون قد عثروا عليهما. "آسف لتركى إياك".

- سأتدبر الأمر. أبلغ السلام لمن فى القاعدة.

اتجه رفيقه ناحية الشمال فتلألأت الشمس على جناحى البيبر المبتعدة وبدت وكان حريقًا قد أمسك بها. انخفض الطيار ألف قدم أخرى.

انكشف الشريط الموازى للساحل وظهرت معه الجبال الجدباء المنحدرة فى حدة صوب ساحل البحر. أوغل فى الهبوط طائرًا بين الشمس الغاربة وبين المواقع. كان الكشاف ينظر إليه بعينين محدقتين.

شحب وجهه وتغلب فى صعوبة على ميله إلى التقيؤ. لقد كان الهبوط مفاجئًا بصورة كاملة.

- "إنهم لا يستطيعون رؤيتنا الآن "قال الطيار.. إن الشمس تعشى عيونهم".

- "ولكنهم يسمعوننا" قال الكشاف؟

- "وماذا إذًا؟ ليخرجوا للبحث عن الهدير فى السماء".

مرت البيبر بسرعة من فوق الموقع. شاهد الطيار التحصينات بطارية المدافع الموجهة إلى المضايق.. والفرقاطة الرأسية إلى جوار الساحل. كان الدخان يتصاعد خفيفًا من الحطام المتخلف عن القصف الصباحى.

- "إنهم لا يلعقون عسلا هنا.." قال الكشاف.

- "إن الرفاق لم يأتوا ليلقوا عليهم ورودًا." قال الطيار. زاد من السرعة وهرب. هو الآن على ارتفاع ألفى قدم. كانت الجبال الواقعة غربيًا ترتفع فى شكل هضاب بنية اللون مشققة فطار فوقها. زادت ضربات قلبه. إن بعضها يبدو كالخوازيق الحادة التى تنتظرك. ومنها ما يبدو وكانه قد فغر فوهاته المعتمة الجائعة ترقبًا لك. كان النظر إلى الجبال من أعلى من وضع الطيران المنخفض كافيًا لبعث الرعب فى النفس. بدأ الغروب فوق البحر وكانت نيرة إلى جانبك الآن لأصابتها الخفة من هذه الألوان الساحرة المنسكبة عليك من كل جانب فى رقة ودفء.

لن يستطيع أساتذتها فى كلية الفنون أن يعلموها قط كيف تمزج مثل هذه الألوان وأطيافها.

- " انظر".. نادى الكشاف وهو يشير إلى أسفل.

- "هل رأيتهم"؟.. قال الطيار. شبحان يقفان على حافة بئر جافة ينظران إلى أعلى. كانا يرتديان ملابس عسكرية، وكان كل منهما يحمل مدفع كارك جوستاف. جهز الكشاف مدفع عوزى ووجهه ناحيتهما.

- لا تطلق النار حتى أقول لك. نادى الطيار.

غطس غطسة حادة ومر بأقصى سرعة من فوق رؤوسهم كان طيرانه منخفضًا لدرجة أنه لومد يده لالتقط بعض الأحجار.

ألقى الاثنان سلاحهما فى البئر وانبطحا يغطى كل منهما رأسه براحتيه.

عندما نظر إلى الخلف وهو يرتفع شاهدهما ممددين على الأرض فى نفس الوضع.

"دورة أخرى ولا يعودان صالحين للعمل." قال الطيار وهو ينخفض بالطائرة مر ثانية تجاههما.

غاص فوقهما وهو يحرث الهواء للحظة طويلة ثم ارتفع وهو يصوب جنوبًا ناحية المواقع.

- لقد أصبتهما بصدمة حقيقية. قال الكشاف وهو يقهقه.

- بالهناء والشفاء لهما. قال الطيار وهو يبتسم فى سكون؟

راحت عيناه تجولان على سطح الساحل وعلى المنحدرات الصخرية تلتقط كل صغيرة وكبيرة فى المشهد الممتد تحته والذى بدأ الإعتام الأول يحيط عليه.

- إنهما يبدوان مثل رجال الاستطلاع. قال الكشاف.

- "إن صح هذا فنحن فى المكان الصحيح". قال الطيار.

إننى محظوظ إذ أعطونى كشافًا لماحًا كهذا.. فكر الطيار وهو يبتسم بينه وبين نفسه. كانت الشمس الواقعة خلفه بمثابة الحليف له.. طالما استطاع أن يستغل زاوية انحدارها. كان وجود رجلى الاستطلاع المصريين فى المكان برهانًا

على أن الطيارين لم يقعا بعد فى الأسر أو أن واحداً منهما على الأقل لم يقع فى أيدى المصريين.

بقيت عشر دقائق من الضوء المناسب للبحث وبعد ذلك سيكون من المستحيل العثور هنا حتى على قطيع من الفيلة. عندما نظر إلى الخلف رأى الجنديين المصريين ينهضان ويجلسان ناظرين إليه. إن فى استطاعتى أن أغطس عليهم من الجنب وأحصدهما. فكر الطيار. إنها عقبة فى طريقى. ولكنهما لن يطلقا النار. إننى لا أستطيع أن أضربهما هكذا. كذلك فإنه لا ضرورة لذلك. سيختلف الأمر لو أطلقا علىّ النار أولا. ولكنهما لا يطلقان.

إن حظى مثل حظهما. من الأفضل ألا تنطلق الطلقات. إن الطلقات وحدها هى التى ستوقظ المواقع التى تبدو غارقة فى النوم. ولن يكون هذا لطيفاً.

- "وهل هناك حركة أخرى فى المنطقة" سأل الكشاف.

- " كلا " .. قال الكشاف.. يبدو أنهما الوحيدان هنا.

عاد الطيار فدار فوقهما فانبطح الاثنان ثانية على الأرض.

ستظلا ساكنين هنا. قال دونما صوت. ارقدا فى هدوء ولا تتحركا؟

لم آتى لأوقع بكما ضرراً. إن تجاهلتمانى تجاهلتكما. هذا طيب ولطيف.. راح يفكر وهو يرتفع من فوقها.. إن هذه المناورة كافية ومسلية.

كان يمكن أن يكون ذلك مسلياً أكثر لو كنا أبعد قليلا عن المواقع ولو لم يكن الأمر مرتبطاً بتبديد الوقت والوقود.

عندما ابتعد لاحظ بقعة مظلمة على الأرض فعرف على الفورانها الفجوة الناجمة عن سقوط الطائرة التى تحطمت. الآن عرف يقيناً أن هناك منطقة غير كبيرة تضم الطيارين معاً.. هذا ما لم يبتعد أحدهما منذ سقط.

- أين يمكن أن يكون؟ - سأل الكشاف.

- حاول أن تفكر فيما تفعله لوكنت مكانه. قال الطيار.. أين كنت تختبئ.

لماذا لا يقف على رجليه؟ إذا كان قد استطاع أن يجر نفسه هذه المسافة الطويلة فهو قادر على أن يقف على الأقل وأن يلوح لى وهو واقف.

هل يخشى أن ينكشف إذا وقف؟ إنه ينكشف إذا وقف. إننى لا أحب المنطقة التى يختبئ فيها. إن جوانب الجبل مليئة بالمغارات ويمكن أن تكون كل منها مليئة بالمغارات ويمكن أن تكون كل منها مليئة بالمصريين الذين ينظرون إلى الآن وينتظرون.

- "افتح عينيك على رجلى الاستطلاع وعلى المواقع".. قال الطيار للكشاف وهو يستعد للهبوط. فى الغطسة الاولى لم يعرفه. حلقت البيبر على ارتفاع ثلاثين قدمًا إلى جانبه. لوح الرجل فى استماتة غير أن الطيار لم يعرفه.

ارتفع ثم غطس ثانية.. غطسة أقل سرعة. نظر إليه الرجل لكن الطيار لم يعرفه هذه المرة كذلك، فارتفع مارًا فوقه صدرت عن يدى الرجل حركة نفاد صبر وألقى قطعة القماش بطريقة تكشف عن شدة بأسه.

كان صمت المواقع يبدد اطمئنان الطيار. وعلى مر الوقت كانت الشمس تغوص أكثر، تلامس الأفق. اختفى الضوء الآن مستسلمًا لغبار كثيف منسكب من السماء.علهم صامتون أن الرفاق دقوهم دقًا عنيفًا فما زالوا مشغولين بإصاباتهم؟

سواء كان الأمر هكذا أم لم يكن فإننى سأعمد إلى الطيران بجانبى فأجعل من العسير عليهم أن يصيبونى إن حاولوا. فى المرة الثالثة هبط بأقل سرعة ممكنة وانزلق على ارتفاع عشرة أقدام من فوق الرجل فعرفه. فتح النافذة فى انفعال وزعق باسمه. لوح الرجل بيديه فى جذل.

- "سأهبط فورًا" زعق الطيار بملء حنجرته كى يتغلب على جلبة المحرك. تفحصت عيناه فى قلق بنية الأرض المحيطة. كان المنحدر وعرًا بطريقة تحول دون الهبوط فوقه. ارتفع الطيار وحاذر الاقتراب من ضلع الجبل. بدا له الشريط السائر فى اتجاه البحر مناسبًا للهبوط.

كنت سأهبط لو أنه كان يستطيع الجرى إلينا.. تفكر الطيار فى سرعة. ولكنه يبدو جريحًا. وإلى أن تجره إلى الداخل يمكن أن تصل عربة جنود من المواقع أو أن يفيق رجلا الاستطلاع من الصدمة وأن يقوما بعمل غير لطيف.

عندما قام بدورة أخرى انجذبت عيناه إلى منحدر معتدل على مقربة من المكان.. ولكنه عندما انخفض ليفحصه وجده مغطى بأحجار أصغرها فى حجم الرأس يمكن لأى منها أن يفجر أحد الإطارات. ما عاد فى مقدوره أن يتفحص أكثر من ذلك. على أن أقرر الآن أو كلا إلى الأبد. امتدت يده آليًا إلى جيبه. تحسست أصابعه قطعة العملة وهى تحس جيدًا ببروزات الكتابة عليها. "إما الحياة وإما الموت."

راح يتمتم فى صوت خفيض ثم عض على شفتيه وبدأ يهبط.

زاد الطيار من سرعة المحرك عندما رأى مسطح الأرض يقترب بسرعة وشاهد الأحجار المدببة. كانت لحظة الترقب الأخيرة أقصر من المعتاد. أوقف المحرك وانتصب وهو يشعر بالارتطام والتقاء العجلات بالأرض. اهتزت الطائرة اهتزازات عنيفة. راح يوجه الطائرة فى مناورة لتفادى قطع الأحجار فى أعلى المنحدر. كبح ميل المنحدر أندفاع الطائرة وعندما توقفت نهائيًا وقفت مائلة بينما مقدمتها متجهة إلى أعلى ناحية الجبال.

فتح الطيار الباب.

- "اجر.. أحضره." قال للكشاف.

قبل أن ينهى كلماته كان الكشاف قد قفز من الطائرة وراح يعدوبكل قوته وثبًا بين الصخور. كان الطيار يتنفس فى صعوبة. كان لا يزال يشعر باهتزاز الطائرة. شعر بالألم فى شفتيه وأحس بمذاق الدم فى فمه. بصق ناحية المواقع، ولم يشاهد أى غبار متصاعد أو أية علامة تدل على حركة من ناحيتهم. كان رجلا الاستطلاع يجلسان حيثما هما دونما حركة. وجه مقدمة الطائرة ناحية المهبط معدًا الطائرة لإقلاع سريع.

ظل الطيار فى مقعده يزيل بيدة عرق جبهته. أحس بشوق شديد لإشعال سيجارة ولكنه كبح نفسه الآن. وصل الكشاف الآن إلى الطيار الجريح وانحنى عليه . ظل الاثنان فى هذا الوضع لحظة طويلة.

ياللشيطان.. ماذا يفعلان هناك؟ فكر الطيار. هلما ! لا تضيعا الآن وقتًا. أنحنى الكشاف على الطيار الجريح وحاول أن يحمله على كتفيه لكنه ركع بعد خطوتين. هذا ما ينقصنا.. تمتم الطيار. لوح إليه الكشاف أن يجىء. هل جننت! فكر الطيار. هل يتوقع حقيقة أن أدع الطائرة وأذهب إليه؟ ستكون كوميديا لوقفز مصرى من خلف صخرة وسرق الطائرة أووجه قذيفة إلى إطار مطاط. ظل الكشاف يلوح له بينما الزمن يهرب ويهرب. قفز الطيار من الطائرة الصغيرة.

وكما يحدث فى أفلام هوليود.. لم يكن يستطيع نفسه الابتسام.. كان يجرى شاهرًا مسدسه. كان عليه أن يقطع مسافة مائتى متر مليئة بالأحجار البيضاء التى جرفتها الصخور من الجبال.

ومن بعيد كان البحر يبدو فى لون أزرق، وكان فى مقدور الطيار أن يميز على السلاح البحرى المصرى الذى يرفرف على سارية الفرقاطة وهو يعدو بين الصخور. لو كان لدى هؤلاء المصريين قسط من الفطنة لما أضاعوا مثل هذه اللحظة المواتية. ربما كانوا لا يضيعونها الآن. ربما كانوا منحنين خلف الصخور مستمتعين بالعرض.. بالفخ الذى خبأوه لنا؟

لقد دخلنا مباشرة إلى الأسد وقد أهملت طائرتى الآن.. الشىء الوحيد الذى كان يمكن أن يخلصنا من هنا.. يا إلهى!.

– ماذا هناك؟ قال الطيار عند وصوله إليهما وهو يلهث.

– احمله معى..قال الكشاف.. إنه غاية فى الثقل.

وضع الطيار المسدس فى جرابه ووضع إحدى يدىّ الطيار الجريح على كتفه بينما وضع الكشاف اليد الأخرى على إحدى كتفيه. تأوه الجريح وتلوى وجهه من الألم. كان وجهه مغبرًا ومغطى بالجروح.

- لماذا درت كل هذه الدورات من فوقى؟ قال الجريح.

- لم أعرفك.

- كنت ألوح لك من ساعة. كيف لم تحس بى؟

- لم أكن هنا منذ ساعة.

- من كان ذلك؟

- شخص آخر؟

تقدموا ثلاثتهم فى بطء. كان الجريح يثب بينهما على ساق واحدة. انكسرت الأخرى عند ارتطامه بالأرض. بدا متوترًا وعصبيًا من الشمس ومن المصريين. لقد أصابونى بقذيفة فى بطن الطائرة فقذفت كرسى الإنقاذ."

قال.." سحبتنى الريح إليهم. ظننت أننى سأسقط مباشرة بين أيديهم." تعثر فى إحدى الصخور ولولا أن أمسكا به لسقط. أبطأوا من سيرهم. كانت العتمة تزداد تدريجيًا وكانت ريح خفيفة تهب من البحر.

نظر الطيار إلى البيبر متوقعًا أن يراها ترتفع إلى السماء فى أية لحظة كما كان يتوقع أن يثب تجاههم رجل من بين الصخور. فى مقدوره الآن أن يسمع هدير الأمواج فيتذكر أنه فى مجال رؤية الفرقاطة وفى مدى مدافعها.

أرجو أن لا يكونوا قد لاحظونا.

- مر اثنان منهما إلى جانبى. قال الطيار الجريح.

- رأيناهما.. قال الطيار.

- لقد مرا على بعد ثلاثة أمتار منى.. لقد كان فى مقدورهما أن يشمونى حتى لو كانوا عميان.

كان يتنفس فى صعوبة وبدا أن الكلام يؤذيه. راحوا يتقدمون فى صمت وهم يصغون لقرقعة خطاهم. كان جسم الطائرة بارزًا فى وضوح على خط المنحدر بصق الطيار اتجاه الصخور وهو يعض على شفتيه.

إننى لا أدرى كيف فعلت هذا. راح يفكر. لابد أن تكون ثعبانًا ابن ثعبان كى تمر بينهما دون أن تصاب. كان ما زال يتوقع رصاصات تنطلق إلى ظهره وهو يساعد الجريح على الدخول إلى البيبر. لم يشعر بالأمان إلا بعد أن صعد إلى الطائرة وجلس ثانية على مقعده. رقد الطيار الجريح على النقالة وجلس الكشاف على حافتها. كانا مضغوطين ولم ينقفل الباب. جذبه الطيار بقوة لكنه لم ينقفل إن محاولة الارتفاع والباب مفتوح تعنى نصف انتحار حتى وإن لم تفكر فى الصخور وفى زيادة الوزن بالطائرة عما هو مقرر لها فى أوامر السلاح الجوى.

- انتبه وابتعد من هنا. صرخ الجريح فى نفاد صبر.

ولم تغير جذبة أخرى من الموقف. فقد ظل الباب مفتوحًا. لقد مر كل شىء بصورة أكثر من ملساء حتى الآن. فكر الطيار وهو يقرض من أسنانه. بصورة أكثر من ملساء. كانت زاوية المنحدر تخفى عن عينيه رجلى الاستطلاع المصريين والمواقع. فى نفس اللحظة وقعت عينه على جهاز يمنع الكشاف من الانكباس إلى الداخل. وجاءه القرار.

- اقذف هذا خارجًا. زعق على الكشاف.

نظر إليه الكشاف فى زيغ.

- نفذ. صرخ الطيار.. الق الجهاز إلى الخارج.

فاجأته صرخته فأحس بالندم. بلع ريقه وعض شفتيه وشعر بالدم فى وجهه ثانية، ولكن كان لصرخته تأثير على الكشاف الذى تكور بالداخل.

وانقفل الباب. فتح الفرملة فى صمت. الآن حان وقت الصلاة. قال لنفسه. إننا أحوج ما نكون لرحمات السماء الآن. إن التحليق من على منحدر دون أن تنقلب الطائرة أمر أقرب إلى المعجزة منه إلى البراعة.

بدأ يجرى على المنحدر لكنه لم تكن هناك ريح تساعده. ارتفعت الطائرة ثم ارتطمت بالأرض ثم ارتفعت ثم ارتطمت. ظل يجرى ويجرى دافعًا عجلة القيادة

إلى أقصى الأمام وبكل طاقة المحرك. وبدا له أنه يقطع كل شبه الجزيرة دون أن ترتفع المكنسة.

اقترب من الرمال فاكتسبت الطائرة سرعة ولكن العجلات ظلت على الأرض. وبدا محققًا أن هذه ستكون النهاية.. إن الرمال تبدو رخوة.. قال لنفسه.. ولو غصنًا فيها.. فالسلام على إسرائيل.. ولكن فى الأمتار الأخيرة جاءت الجذبة الصحيحة لعجلة القيادة.. جذبة رقيقة.. فارتفعت المكنسة العجوز.

شاهد من أعلى رجلى الاستطلاع المصريين. كانا راقدين فى نفس المكان وعلى نفس الوضع طيلة الدقائق العشرة الطويلة هذه دون أن ينقضوا الاتفاق الجنتلمان. مرت البيبر فوقهما فى اتجاه البحر. لاحظ الآن وقد عاد تنفسه طبيعيًا أن جسده مغطى بالعرق البارد. كانت أصابعه ترتعد كأصابع السكير. قدم للجريح حزام غذائه فأخرج منه الجريح علبة الماء وراح يعبه فى نهم.

- هل تريد أن ترى شيئًا؟ قال الطيار.. انظر إلى أسفل.

رفع الطيار الجريح نفسه على مرفقيه ونظر من النافذة. كانوا يمرون فوق البقعة المظلمة.. الفجوة التى أحدثتها المستير المحطمة.

نظر الجريح للحظة طويلة ثم عاد ليتمدد على النقالة دون أن ينطق بكلمة. طاروا اتجاه الشمال على امتداد الساحل. نظر الطيار فى ساعة الوقود. مازال لديه وقود يوصله إلى إيلات. كانت السماء قد فقدت لمعانها وبرزت فيها النجوم. كان البحر قد أظلم ومعه الصحراء. ولم يكن القمر ساطعًا. كان زبد الأمواج التى تضرب الساحل يظهر على ضوء النجوم. طالما بقى ملتزمًا بخط الساحل فإنه لن يضل. بعيدًا فوق البحر كانت تمر بضع سحابات بيضاء مستطيلة تنشر ضياء ساحرًا فى الأفق فحملت الرب ثانية إلى تفكيره. فى وسط الطريق استطاع أن يحقق اتصالا مع إيلات فأبلغها أنه يحمل أحد الطيارين المفقودين.

- إنه جريح.. أضاف.. ليس بصورة مقلقة.

- أوكى. نحن نعد سيارة إسعاف.

- أين الممر؟

- أوكى. سنضيئه عندما نسمعك وبعد أن تضىء أنوارك.

- لقد نام.. قال الكشاف بعد أن انتهى الاتصال .

- دعه ينام.. قال.. سنوقظه عن وصولنا.

كان هذا هو اليوم الخامس من أيام القتال. راح يسائل نفسه.. أين اللواء الآن. كانت يده رطبة وملتصقة بعجلة القيادة. كانت القمرة مظلمة ولم يكن من ضوء سوى ضوء المصباح الأحمر الذى ينير لوحة الأجهزة. وجه الطيار نظرة جانبية إلى الكشاف الذى كان ينظر إليه بعين الإحساس المضاعف بالفراغ المحيط والفضاء الكبير والظلام الذى تتحرك فيه.. جعل الطيار يفكر.

كان يتقدم باستمرار على امتداد الساحل ولم يهتم بان يتأكد على الخريطة من مكانه. كان يفكر فى نيرة.. آملا أن يعطوه إجازة ليلية. سأعدو لأتلفن لها حتى قبل أن أستحم. هنا أغلق عينيه وتذكر الطريقة الخاصة التى كانت تتدثر بجسده بها. كنت محظوظًا اليوم. راح يفكر. محظوظ أكثر من أى وقت.

لاحت أنوار من بعيد فعرف أنها أنوار العقبة. كانت إيلات مظلمة.

- "أيقظه الآن".. قال للكشاف.

على مسافة قصيرة من المطار أضاء أنواره وبعد دقيقة أضيئت الأنوار على ممر الهبوط. بدأ فى الهبوط دون أن يقوم بدورة فوق الممر.

عندما لمس الأرض لاحظ عربة الإسعاف تنتظر فى طرف الممر.

مازال جالسًا فى مقعده وهم يخرجون الجريح ويحملونه إلى العربة توقف المحرك، ولكن جلبته ما زالت تطن فى أذنيه. لقد كانت تلك رحلة طويلة.

أطول رحلة طيران قام بها فى حياته. ترك عجلة القيادة واتكأ إلى الخلف.

فى الخارج كان هناك جو من الانفعال البالغ. فقد التف ميكانيكيون وطيارون ومحبو استطلاع حول البيبر. لم يكن يسمعهم . أغمض عينيه وترك نفسه للإرهاق. مرت أمام عينيه مشاهد من الصحراء.

مضايق وسهول صفراء وجبال جدباء. بعد ذلك اختفت مشاهد الصحراء ولكنها لم تذب. ورأى سماء واسعة وسحابات بيضاء يصدر عنها ضياء ساحل ساكنًا متعجبًا. وبعدها اختفت جلبة المحرك من أذنيه وفتح الطيار عينيه.

استقبلته أحضان حارة وربتات على الكتف وهو ينزل إلى الممر.

- هل لدى أحدكم سيجارة؟ - سأل.

من كل جانب مدت إليه علب مفتوحة. سحب سيجارة من إحداها، أشعلها له أحدهم. جذب الطيار نفسًا طويلاً، ثم أطلق الدخان من رئتيه ثم ألقى السيجارة وداسها بقدمه. ومازال كل هذا غير حقيقى.. ذلك أنه لم يبدأ فى الإحساس بصلابة الأرض تحت قدميه إلا بعد الخطوة العاشرة.

الفصل الخامس

أشعار حرب أكتوبر ١٩٧٣

الصدمة والفزع والدوار
والاستنجاد بالسماء

نهاية ليلة .. للشاعر إسحق بولاق (١٩٧٤)

كلمة الرجل البسيط.. للشاعر يهو شع طن بى (١٩٧٤)

البوابة لم تنفتح.. للشاعر يحنيل حازاق (١٩٧٥)

أقنعة الجد البيضاء.. للشاعر ايتسيك مأنجر (١٩٧٤)

كيف تقطعت الدروب؟ للشاعر يحئيل حازاق (١٩٧٥)

كم كنت صبية.. للشاعر أوراه ليف رون (١٩٧٥)

مجانين.. للشاعر إيتسيك مأنجر (١٩٧٤)

الأمير الصغير يصيبه الهرم.. للشاعر يعقوب باسار (١٩٧٥)

راكض.. للشاعر دوف حومسكى (١٩٧٤)

عندما تقول حياتى.. للشاعر دوف حومسكى (١٩٧٤)

أغانى أرض صهيون.. للشاعر يهو دا عميحاى (١٩٧٤)

أريد رجلاً حكيماً.. للشاعرة حدفاه هركابى (١٩٧٤)

أريد رجلاً بلا قوة.. للشاعرة حدفاه هركابى (١٩٧٤)

الصدمة والفزع والدوار
والاستنجاد بالسماء

إننى أعتبر القصائد الثلاث عشرة التى ترجمتها عن العبرية والتى أقدمها فى هذا الفصل بمثابة وثائق تاريخية فى صورة أدبية على عمق الصدمة والترويع والفزع التى أنزلتها حرب السادس من أكتوبر بالمجتمع الإسرائيلى وما صاحبها من حالة دوار وفقدان التوازن وأبسط مشاعر الأمان والتى جرفت الجميع فى إسرائيل بدءا من القيادات العليا وحتى رجل الشارع البسيط، مرورًا بالنخب العسكرية والسياسية والثقافية.

أرجو من شبابنا وأجيالنا الجديدة أن يواجهوا كل من يشكك فى عظمة الانتصار المصرى فى هذه الحرب بهذه القصائد خاصة أبواق الدعاية الإسرائيلية التى بدأت تنشط فى اتجاه التشكيك بعد مرور ما يقارب أربعين عامًا على تلك الملحمة المصرية البطولية اعتمادًا على تقادم التجربة ونشوء أجيال عربية جديدة لم تعايشها.

وليسمح لى القارئ أن أصارحه بأن التدخل الأمريكى بالجسر الجوى الناقل للأسلحة الحديثة والدبابات الجديدة بطواقمها إلى داخل سيناء وبالتصوير الجوى من ارتفاعات عالية لا يغير فى تقديرى من عظمة الانتصار المصرى بكل المقاييس.

وإذا كان زئيف شيف - كبير المحللين العسكريين الإسرائيليين - وغيره قد أطلقوا على حرب أكتوبر اسم الزلزال فى كتب ومقالات، فإننى أدعو القارئ

العربى إلى مطالعة القصائد التى اخترتها من عشرات القصائد المماثلة والتى تدفقت من الجرح الإسرائيلى الغائر والنازف لمدة اتصلت حتى نهاية عام ١٩٧٥.

إن هذه الحرب التى يشير إليها الشعراء باسم يوم الغفران لتوافقها مع عيد الغفران اليهودى فى عام ١٩٧٣ قد فجرت فى أفئدة الشعراء صور اللهب والنيران والحرائق، كما سيرى القراء وأخرجت على أقلام مشاعر القلق والأسى والحداد والذهول وكراهية الحرب التى كانوا يتباهون بأنهم سادتها من قبل.

أرجو من القارئ قبل أن يطالع القصائد، أن يعود إلى مطالعة قصة (أغنية البجع) الواردة فى قسم القصص السياسية. هذا الرجاء له هدف وهو اكتشاف المنطق الذى كان سائدًا فى إسرائيل اتجاه العرب والمصريين والأرض المحتلة فى سيناء وغيرها ليتبين ماذا فعلت به البطولات المصرية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣.

القصة منشورة فى ١٧/ ٤/ ١٩٧٠ أى بعد أن حدثت حرب الاستنزاف المصرية وهى تقدم حوارًا بين جنديين مكلفين بالمراقبة على حافة قناة السويس فى حرب الاستنزاف. يقول أحد الجنديين بعد أن شكا له رفيقه من شدة القصف المدفعى المصرى بالأمس: "هل تعلم أننى أتمنى أحيانًا أن يجيئوا، ليس هذا عملاً أن نستعد وننتظر كى نستعد وننتظر لنستعد ثم نعود فننتظر. لقد سئمت أن يجيئوا ويهاجموا، فهذا يعنى أننا سنهاجم بالتالى ونضع لهذه العملية نهاية. ويجيبه زميله قائلا: "أين أنت من هذه النهاية؟ إن النهاية بالنسبة لك ليست سوى أن تنفق هنا وإذا ما قتلت عشرة من العرب، فإن هذا سيكون النهاية بالنسبة لهم. أما العملية نفسها فلن تكون لها نهاية، إننى أعتقد أن هذا لن يؤدى إلا إلى إطالة أمدها؛ وأنت تعلم على أى نحو سيكون الوضع حينذاك؛ فأنت ستتباهى بالنجاح فى ضربهم وستقول فى فخر إننى مستعد طوال الوقت.. أما هم فسيعتريهم السخط على فشلهم وسيحاولون مرة أخرى. ويعود الجندى الأول للإجابة فيقول: "أوكى فليرسلوا آخرين وآخرين فسنضربهم جميعًا". وهنا يعلق زميله قائلاً: "لم أكن أعلم أنك سفاك دماء".

إن هذا الحوار يؤكد أن منطق سفك دماء العرب فى إطار أسطورة الجيش الذى لا يقهر، كان هو المنطق المسيطر فى عالم السياسة والقيادة العسكرية فى إسرائيل وليس منطق التسوية السلمية والمصالحة. يؤكد هذا، الحوار الختامى فى القصة بين الجنديين حول الموقف من سيناء. يقول أحد الجنديين.. ماذا إذن؟ هل سنظل هكذا إلى الأبد؟ ويجيب الثانى: هل جننت؟ فيقول الأول: هل ننسحب؟ ويقول الثانى: هل جننت؟ ويقول الأول: حرب جديدة إذن؟ ويجيب الثانى: هل الموقف مجرد من الأمل إلى هذا الحد؟.

إن هذا الحوار يشير إلى اعتبار فكرة الانسحاب من سيناء أمرًا جنونيًا بقدر ما يشير إلى حالة الإجهاد التى سببتها حرب الاستنزاف والأمل الإسرائيلى العام فى أن يصاب المصريون بالإنهاك ويتوقفوا عن القتال لتبقى أطماع التوسع فى سيناء مهيمنة على العقول فى اطمئنان.

هنا يمكن مطالعة القصائد التى أنتجها الشعراء الإسرائيليون باعتبار المشاعر الواردة فيها نتاجًا لسياسات العناد الإسرائيلية ولأطماع التوسع ولنزعة المباهاة بقتل العرب وحل المشكلة معهم بالقوة، وإذا لم تنفع القوة، فيجب استخدام المزيد منها فهو ينفع من وجهة النظر الإسرائيلية.

فى القصيدة الأولى التى تأتى تحت عنوان "نهاية ليلة" أى نهاية ليلة الغفران، يصور الشاعر فى مطلعها حالة الرعب التى داهمت الجمع الإسرائيلى وهو فى احتفالات العيد فى المعابد يتلو الصلوات ويستمع إلى الأبواق المقدسة ويطلب الغفران غير عابئ بجرائم الاحتلال والتباهى بقتل العرب والجهر بأطماع "أرض إسرائيل الكاملة" . ينهى الجمع صلواته ويتنادى بالمسارعة إلى ميدان القتال. وفى الفقرة الثانية يصور ضراوة المعركة التى تجعل الأرض تتلوى والهضاب تميد فى صلاة فزع. ولا ينسى الشاعر أن يدعو الرب أن يعجل بنهاية طريق الألم الذى يصوره فى الفقرتين التاليتين فى صورة مرعبة، فالخفافيش الهائجة تحلق فى صمت وسكون هو سكون الموت المخالف للسكون السابق فى الصلوات والظلام يسود، فلا ينبعث من النجوم سوى نور شحيح يحمل الخطر والرعب تنفثه فوهات البنادق فى الميدان.

وفى الفقرة التالية يعزف الشاعر النغمة القبيحة المستهلكة، فهو يرى أن التاريخ اليهودى الذى يتعرض فيه اليهود بدون ذنب إلى المذابح والاضطهاد فى أوروبا يعيد نفسه هنا فى الهجوم المصرى والسورى.. نغمة تكشف عن عقل معتل لا يريد أن يرى أن أطماع التوسع ورفض مبادرات السلام العربية والتشبث بشعارات أرض إسرائيل الكاملة هى المسئولة عن الهجوم العربى وعن طريق الآلام التى عاشها جنود الاحتلال الإسرائيلى.

وفى إطار هذا المنطق المريض يستدعى الشاعر صورة (راحيل)، الأم المقدسة زوجة يعقوب المفضلة عنده من بين زوجاته الأربع، وأم يوسف ابنه المفضل. أن الشاعر يصورها راكعة تدعو لأحفادها وتعلن أن تاريخ الاضطهاد الأوروبى المسيحى والنازى لليهود لن يعود من جديد ليرسب الشاعر فى ذهن قارئه الإسرائيلى فكرة أن الحرب العربية هى حلقة جديدة من سلسلة الاضطهاد ومعاداة السامية.

فى الفقرتين الختاميتين، يعود بنا الشاعر إلى صور الظلام المفزع وانطفاء النجوم وسكون الموت المحلق والمعارك الدائرة فيميدان القتال وفى القلوب أيضًا.

* * *

أما القصيدة الثانية "كلمة الرجل البسيط"، فتدخل بنا مباشرة إلى صورة الفزع العظيم الذى فجره أبطال مصر فى إسرائيل. فكل شىء يتواثب فزعًا كالنار المندلعة التى لا تخبو والإعتام يسيطر على المشهد ويبعث القلق والتوتر وحالة العصبية، فيتواثب كل شىء من موضعه ويفارقه إحساس الطمأنينة تمامًا كالنار التى اندلعت فى البيت المقدس. سيلاحظ القارئ شحنة الفزع والرعب التى يلمسها الشاعر حوله فيخرجها فى صور متتالية تصور الجبال وهى تتمايل وكل الأشياء تهرول فى جنون والكلمات لا تخرج إلا صراخًا والناس لا تتحرك إلا ارتجافًا ودوران الأرض يتحول إلى صورة امرأة تتلوى من الألم وهى تلد وليدها. الشاعر يقدم صورًا مؤثرة عن الشبان الذين يحتمون من الرمضاء بالنار ويلعقون

الملح رمزًا للمعاناة فى الدفاع عن البيت المقدس والفتيات ينزلن إلى حفر الماء الأسود بحثًا عن الخلاص.

وفى ختام هذه الصور المتتالية بالفزع والألم، يعلن الشاعر تشبثه فى الأمل بمجىء المسيح الهيودى المخلص وهى العقيدة المستقرة فى الديانة اليهودية، حيث يأتى المسيح من السماء وبإرادة السماء وحدها ليقود اليهود من وضع الاضطهاد والمذلة والشتات إلى الأرض المقدسة باعتبارهم شعب الهداية المختار. فى خضم الفزع وموجات الرعب، يلجأ الشاعر إلى السماء طالبا العون والخلاص.

***

أما القصيدة الثالثة التى تحمل عنوان "البوابة لم تنفتح"، فإنها تستخدم صورة بوابة الغفران التى يوعد اليهودى بأن تفتحها له السماء فى عيد الغفران. هنا يقدم الشاعر التجربة من داخل حلمه وهو نائم، وهو حلم متعلق بأخيه. فبوابة الغفران لا تنفتح لأخيه بل تتحول إلى بوابة حديدية ثقيلة تطبق على جسد الأخ تكاد تسحقه بقوة فى إشارة واضحة إلى فزع الشاعر على أخيه من الحرب التى اندلعت يوم الغفران.

تترك صور الفقرة الثالثة أنطباعا بأن هذا الأخ عسكرى معرض للخطر الحتمى بقوة كقوة جاذبية الأرض فلا يجد الشاعر مفرًا من الانتحاب والعويل على أخيه والرثاء لنفسه أيضًا، فهو أحد أبناء نصل ملعون كتب عليه أن يدور ويدور فى التراب. ينهى الشاعر القصيدة والتجربة المفزعة باكتشاف أنه فى كابوس مفزع وأن أخاه يقف إلى جواره ضاحكًا وهو يراقب علامات الفزع عليه وهو نائم يفرك قدمًا بالأخرى من وطأة الكابوس. إن القصيدة تصور بصورة فنية عالية كيف تحول يوم الغفران من باب للفردوس والرضا السماوى إلى باب لجحيم مادى ونفسى شديد القسوة.

***

أما القصيدة الرابعة "أقنعة الجد البيضاء" فيقدم الشاعر فيها الحدث فى إطار رمزى من الحوار بين الجد رمز أبوة المجتمع وبين فلاح عملاق فى فصل الخريف. المفروض أن الفلاح عادة ما يكون مسئولاً عن الزرع ورعاية الزهو ر ولكن الجد يخاطبه فى القصيدة قائلاً:

"أيها الفلاح.. بمنجلك الفضى الذى على حافة الأفق..

قطعت زهرات الحدائق كلها..

فما جدوى العيون إذن

وقد اختفت الألوان من الحدائق؟"

هكذا يربط الشاعر بين الذبول الذى يحل بالحدائق فى الخريف وبين حدث الحرب ربطًا رمزيًا واضحًا. فالفلاح يجيب بصوت يدوى فى الأفق قائلاً:

"فى الحدائق..

لم أدع سوى الحزن لكى يزهر

وتحت أستاره القاتمة تشتعل

آلاف الألوان .. التى لم تفك

رموزها..

لكن شبح العمى والموت يسكن أهدابكم.."

على هذا النحو غير المباشر يصور الشاعر الصدمة وواقع الأحزان الذى صوره الشعراء الآخرون بلغة مباشرة، وتنتهى القصيدة بتعبير الجد عن الأمل فى مشهد أفضل.

* * *

أما القصيدة الخامسة " كيف تقطعت الدروب" ، فهى تأخذ منحى مباشراً فى التعبير عن الصدمة والتساؤل عما أثارته من دماء وفزع ووحشة وتقطع الدروب

وتحول الإسرائيليين إلى ذئاب مذعورة خلف الشجيرات فى أرض إسرائيل التى تطل عليهم بوجه تكسوه صفرة المرض والاعتلال.

* * *

أما القصيدة السادسة " كم كنت صبية " فإن الشاعرة تعبر فيها من خلال تقمصها للسان إسرائيل.. فتتحدث عن آثار نهش الأسنان فى بدنها، وبعد أن كانت صبية فإنها تتحول إلى عجوز تغطى الفجوات نصف جسدها ثم تستخدم رمزًا آخر لإسرائيل فى معرض الرثاء الذاتى، فتقول:

"أسد مصاب يقف مثخنا بالجراح

وقد لحق به الهزال

ومن شريان مقطوع

تتدفق نكبة"

إن الرمز هنا شديد الشفافية فى الكشف عن حجم الإصابة الفادحة التى نزلت بالأسد الإسرائيلى.

* * *

أما القصيدة السابعة "مجانين"، فالشاعر يصور فيها حالة الصراع الفكرى التى نشأت بين التيارات الإسرائيلية تحت تأثير الصدمة والفزع فى إطار رمزى يضع المتحدثين باسم هذه التيارات فى حالة الجنون. فالأول رجل عار يبتسم للخيوط التى تتضفر لتغزل له ثوبًا يكسو بدنه ويقول "أنا الملك". أما الثانى فيتقمص دور نبى الرب الذى يتحدث باسمه ويلوم الملوك وإسرائيل على خطاياها عادة فى أسفار الأنبياء بالعهد القديم. فى القصيدة يقول هذا النبى:

"على العنف قام عرشك..

ومصيره أن يسقط بالعنف..

رداء مملكتك ملوث بالدم..

وتحول الإسرائيليين إلى ذئاب مذعورة خلف الشجيرات فى أرض إسرائيل التى تطل عليهم بوجه تكسوه صفرة المرض والاعتلال.

* * *

أما القصيدة السادسة " كم كنت صبية " فإن الشاعرة تعبر فيها من خلال تقمصها للسان إسرائيل.. فتتحدث عن آثار نهش الأسنان فى بدنها، وبعد أن كانت صبية فإنها تتحول إلى عجوز تغطى الفجوات نصف جسدها ثم تستخدم رمزًا آخر لإسرائيل فى معرض الرثاء الذاتى، فتقول:

"أسد مصاب يقف مثخنا بالجراح

وقد لحق به الهزال

ومن شريان مقطوع

تدفق نكبة"

إن الرمز هنا شديد الشفافية فى الكشف عن حجم الإصابة الفادحة التى نزلت بالأسد الإسرائيلى.

* * *

أما القصيدة السابعة "مجانين"، فالشاعر يصور فيها حالة الصراع الفكرى التى نشأت بين التيارات الإسرائيلية تحت تأثير الصدمة والفزع فى إطار رمزى يضع المتحدثين باسم هذه التيارات فى حالة الجنون. فالأول رجل عار يبتسم للخيوط التى تتضفر لتغزل له ثوبًا يكسو بدنه ويقول "أنا الملك". أما الثانى فيتقمص دور نبى الرب الذى يتحدث باسمه ويلوم الملوك وإسرائيل على خطاياها عادة فى أسفار الأنبياء بالعهد القديم. فى القصيدة يقول هذا النبى:

"على العنف قام عرشك..

ومصيره أن يسقط بالعنف..

رداء مملكتك ملوث بالدم..

وسيلوثه دمك أيضًا..
أسمع كلماتى..
فأنا نبى الرب".

ومن الواضح أن هذا النبى يلوم إسرائيل وملكها المفترض على مواصلة سياسة سفك دماء العرب ويتنبأ بسقوط المملكة بالعنف والدم. أما الثالث، فهو شخص يتحدث باسم التيار الدينى فى إسرائيل الذى يبشر الإسرائيليين بالخلاص والنصر إذا اتبعوا نداءه "تعالوا نؤمن". وينهى الشاعر القصيدة بفقرة تبين أن القاسم المشترك الذى يؤاخيهم والذى يجمع بينهم جميعًا شقيقان هما القلق والأسى، تجسيدًا للآثار الناتجة عن الصدمة.

***

أما القصيدة الثامنة "الأمير الصغير يصيبه الهرم" ففيها يعلن الشاعر أنه أصيب بالشيخوخة وأنه كان شاعرًا يتغنى بالحب وبالكلمات وأنه أصبح معزولاً يعانى الوحشة.

***

أما القصيدة التاسعة "راكض" فهى تعبّر عن حالة الدوار على نحو رمزى على لسان الشاعر الذى تفر نفسه منه بسرعة تصيب بالدوار وتختفى لتصبح نقطة ضئيلة صغيرة ويبقى هو فى انتظار عودة نفسه التى فارقته وراحت تركض بعيدًا.

***

أما القصيدة العاشرة "عندما تقول حياتى"، فإن تعبيرها عن الصدمة يتباعد عن الصور المباشرة ويأخذ شكل التساؤل عن معنى الحياة؟ وهل يضع الناس فى حسبانهم وهم يجيبون عن سؤال "ماذا تعنى حياتى" كل الطرق المقطوعة والأيام الحزينة والليالى المفزعة؟. وتنتهى القصيدة بإيحاء أن الإجابة عن السؤال فى حالة وضع الأحزان فى الحسبان يشير إلى أن الحياة الجميلة المملوءة بالورود زمنها قليل جدًا فى عمر الفرد.

***

أما القصيدة الحادية عشرة "أغانى صهيون"، فهى محاولة لتثبيت مشاعر الإسرائيليين والمحافظة على قيمة الوطن اليهودى الذى بنوه. فالشاعر يؤكد فى صور متتابعة قيمة هذا الوطن بالنسبة له فهو المكان:

"الذى يمكننى فيه أن أحلم دون أن أسقط

وأن أرتكب أعمالاً سيئة دون أن أضيع

وأن أهمل امرأتى دون أن أصبح معزولاً

وأن أبكى دون خجل وأن أخون وأكذب

دون أن أتعرض للهلاك.."

إنها دعوة واضحة للتماسك النفسى الجماعى فى مواجهة الصدمة وإحياء مشاعر الحماس الوطنى التى انطفأت.

***

أما القصيدتان الثانية عشرة والثالثة عشرة وهما لشاعرة واحدة، فإنهما تعبران عن الأمل فى إنهاء سياسة القوة والعنف والتطلع إلى المحبة والسلام والأمان. الأولى بعنوان "أريد رجلاً حكيمًا" ترفض فيها الشاعرة مشاهد الذعر ومشاعر الخوف وأصوات الحداد والحطام وتعلن أنها تبحث عن رجل حكيم ينقذها من هذا كله وأنها لا تريد شيئًا سوى هذا الرجل. أما القصيدة الأخرى، فهى بعنوان "أريد رجلاً بلا قوة" وفيها تنسف الشاعرة الصورة المحببة للرجل الإسرائيلى الذى تنتجه وسائل التنشئة ليكون عدوانيًا بارد العواطف قويًا يقتل ببراعة وبدون شفقة ولا مشاعر ندم. إنها صورة الرجل التى رأيناها من قبل فى قصة " كان يمكن شراء مدفع بهذا المال " للضابط الإسرائيلى ميخائيل الذى كان يضاجع النساء بلا مشاعر لأنه لا يعرف عاطفة الحب. هنا تعلن الشاعرة أنها تريد رجلاً بلا قوة يأخذها برقة وبحب وليريها الخير والشر ويشاطرها حلمها فى السلام وتجنب واقع الأحزان والمرارات ومذاقات الملح القاسية والأعشاب البرية الوحشية المحيط بها.

نهاية ليلة.. للشاعر إسحق بولاق (١٩٧٤)

وبينما صوت البوق يتردد

إيذانًا بانتهاء النهار

تتدافع فجأة من داخل صفحات

كتاب الصلاة..

نداءات هامسة..

وتتساقط من على الأكتاف

عباءات الصلاة.

إلى هناك..

إلى قلب المعمعة

منخز فى مواجهة

منخز..

وقطعة من الصلب

فى مواجهة صلب

الأرض تتلوى

والرمال والهضاب تميد

فى صلاة فزع..

رب العالم..

عجل بنهاية الطريق.

خفافيش هائجة تتخبط فى الهواء

تحلق بلا صوت..

الزمن الذى انكسر..

سكون جد مغاير

لما سار قبله من سكون.

كوكب وكوكب من القار والزفت

نورهما خطير وشحيح

وعلى مبعدة من هنا

تعمل فوهات البنادق

تنفث من أفواهها

الرعب.

وثانية (أحقا يعيد التاريخ نفسه)

عينا عجل خاويتان فى بلاهة

ضحية عالم

وكل شىء أصم.

وثانية تجتر الأرض

وتأخذ سمة القسوة

وراحيل أمنا راكعة

فى صلاتها..

دونما بكاء

تلقى لريح الليل بشذرات

السبات..

وجه تكلله الشقوق

يطل من مطفأة سجائر يتصاعد منها

الدخان..

وفجأة تنتصب قامتها

وتلقى ثانية بالكلمات

لبؤة تحمى جراءها

كلا.. لن يعيد التاريخ

نفسه

كفت النجوم عن إرسال ضوئها

خفافيش هائجة تحلق دونما صوت..

الزمن الذى انكسر..

سكون جد مغاير لما ساد قبله

من سكون..

تحجرت الكلمات فى الحلق

التهاب النفط.. مشهد يصر على

الأزهار..

القلب فى المعارك..

المعارك التى فى القلب

كلمة الرجل البسيط.. للشاعر يهو شع طن بى (١٩٧٤)

كل شىء يتواثب.. يتراقص

كالنار المندلعة ولا تخبو

كالملائكة التى تترنم فى

الهزيع الأخير من الليل

كالعصافير التى تتواثب

فى عصبية لحظة مغيب

الضياء..

تلك العصبية التى تصيب

كل الأحياء عند الإعتام

فليس بين الأحياء مَن يشعر

بالسكينة عند الإعتام

كل ذى حياة ينظر فى المرآة

المتواثبة

والكل يتفزر ويتواثب..

كالكائنات الصغيرة الدقيقة

التى تظهر خلف عدسة المجهر

كالنار التى اندلعت فى

البيت المقدس

فلم يعد من الطمأنينة شىء..

الجبال ترقص كالآلهة

كل الأشياء تهرول فى جنون

سنوات مجنونة كاسرة

أجيال مجنونة كاسرة

الناس يخرجون من جميع

المحطات..

الكلمات تخرج صراخًا:

اهتفوا.. اهتفوا

الجميع يتواثبون

كل شىء يرتجف

كل شىء يزيد

كالأرض تدور حول

نفسها

كالحبلى تتلوى وهى تلد

كخط الأنابيب

الذى يلقى بالماء على النار

التى اندلعت فى البيت المقدس

النار المندلعة.. ولا تخبو

وما عاد هناك من الطمأنينة

شىء...

الناس يخرجون من جميع

المحطات..

وما من محطة نهائية..

والشبان يحتمون من النار

بأكوام الملح..

ويلعقون..

فهذا هو طريقهم لبناء

البيت المقدس..

والفتيات.. رقيقات.. نقيات الأبدان

ينزلن ممدودات الأيدى

غلمان وفتيات ينزلون يردون

حفرة الماء الأسود

غلمان وفتيات.. تجمدت وجوههم

من هول آلام الخلاص..

والكلمات تخرج صراخًا

امضوا فى الحياة

احملوا الكلمات إلى نساء

يتصاعد نحيبهن..

احملوا الكلمات إلى حيث

صراخهن..

اضربوا موعدًا لكل السكان

اقذفوا الماء على النار

التى أمسكت بالبيت المقدس

نادوا الملائكة..

أن تترنم فى الهزيع الأخير

من الليل..

فالأمل فى مجىء المسيح

فى مجىء الخلاص..

أبدا لا ينقطع.

البوابة لم تنفتح.. للشاعر يحئيل حازاق (١٩٧٥)

لم تنفتح البوابة لأخى فى

يوم الغفران..

بل راحت تنقفل

راحت تنقفل ماضية

على محاورها الثقيلة

وأنا أجاهد لوقف حركة الحديد

وهى تطبق على أخى من كل

صوب

وإن كانت هذه قوة جاذبية التربة،

تجتذب أخى كأنها امرأة،

وترفعنى لأواصل التحليق كالقمر

الصناعى والدوران حولها

فإننى أنتحب..

فأنا أحد أبناء نصل ملعون

مضروب بالتربة، يدور

ويدور

وأخى مازال ينظر من خلف

كتفى وعيناه تضحكان

لى وأنا أحلم،

ويصمت هو إذ يرى كيف

أفرك قدمى كلا منهما بالأخرى.

أقنعة الجد البيضاء.. للشاعر إيتسيك مانجر (١٩٧٤)

علق المساء على صواريه أقنعة الجد البيضاء

من بين شفتى الجد الزرقاوين تتناثر ذابلة

ليال خريفية

ومع بهجة أصوات فروع الأشجار الحزينة

الجافة..

يزدهر حزن الأوراق الذابلة المتساقطة..

أحمر اللون.

على حصانه الأبيض يركب فلاح على حافة

الأفق..

على كتفيه منجل فضى.. ساخن وثقيل

تكشفه لعيون جذوع الشجر..

أقمار الخريف المنسحبة فى رتابة

وخلفه غبار ضباب كثيف.

وشفتا الجد الزرقاوان تتحركان فى

تمتمة ثقيلة.. تفهم بصعوبة

"أيها الفلاح.. بمنجلك الفضى الذى

على حافة الأفق..

قطعت زهرات الحدائق كلها..

فما جدوى العيون إذن

وقد اختفت الألوان من

الحدائق؟

يركب الفلاح فى بطء على حافة

الأفق..

ومن صدره الواسع كثيف الشعر

تفوح رائحة الحشائش المجزوزة

يضع يده كبوق على فمه

ويصرخ إلى أعلى.. حتى ترتعش

صوارى المساء المربدة.. وتهتز

أقنعة الجد البيضاء وتدور عيونها

فى مآقيها..

"جززت بمنجلى كل الألوان

فى الحدائق..

لم أدع سوى الحزن لكى يزهر

وتحت أستاره القاتمة تشتعل

آلاف الألوان.. التى لم تفك

رموزها..

لكن شبح العمى والموت يسكن أهدابكم.."

الفلاح يركب فى بطء على حافة الأفق..

ومن خلف ظهره تسقط على الحقول..

غيوم المساء..

إلا أن عينى تريان فى وضوح بديع:

أقواس قزح مختارة..

ترف على حقول المساء.

كيف تقطعت الدروب؟.. للشاعر يحئيل حازاق (١٩٧٥)

كيف تقطعت الدروب

بتنا ذئاباً خلف شجيرات

متربة اللون فى وديان مهجورة

نمضى منتحبين..

من نهاية البيداء إلى نهايتها

أرض،

أرض إسرائيل..

بوجه معتل بالصفرة

ملىء بشقوق الأنهار الجافة

تطل علينا من أعلى ككتاب صلاة

ساكن..

وكيما لا نصل فإننا لا نصل،

كيف تقطعت السبل وأصبحت

جداول جافة.

كم كنت صبية.. للشاعر أوراه ليف رون (١٩٧٥)

انظروا كم هى آثار نهش الأسنان

فى.. بدنى

كم كنت صبية.

فجوات تغطى نصف جسدى

والمياه تعبر خلالى والأيام

وجميع السنابل وجبال السوسن.

أسد مصاب يقف مثخنًا بالجراح

وقد لحق به الهزال

ومن شريان مقطوع

تتدفق نكبة.

مجانين.. للشاعر إيتسيك مانجر (١٩٧٤)

رجل جالس يحدق بعينيه..

يرى كيف تتضفر الخيوط معا.

لتغزل رداء قرمزيا..

تكسو جسده العارى، وتنحنى أمامه

فى صمت..

يبتسم الرجل ويقولك أنا الملك.

أما الثانى فيهيل على رأسه التراب

والرماد ويصرخ فى غضب

"على العنف قام عرشك..

ومصيره أن يسقط بالعنف..

رداء مملكتك ملوث بالدم..

وسيلوثه دمك أيضًا..

أسمع كلماتى..

فأنا نبى الرب".

والثالث فى أسى يبتسم!

"ستذوى عظمتك أيها الملك، أيها النبى

فى ضجيج الزمن سيختفى جرس ملكك..

ستنسج الحياة من كليكما معا..

دودة تعيش إلى الأبد".

"انظر.. النجم الذى يخفق هناك

من بحر الليل والسماء،

فى دائرة الخلود هو،

وهو الذى سيقودنا من العناء

إلى الخلاص..

يقول الرابع وهو يبتسم

"تعالوا نؤمن".

صامتون كلهم.. يلقون ظلالهم

على الدار..

وعلى الحائط يرتعش القلق

يضطرب مع نفسه..

وعبر النافذة.. يطل الأسى

ويبتسم له فى هدوء قائلاً:

إنهم إخوتى.

فأنا نبى الرب".

والثالث فى أسى يبتسم!

"ستذوى عظمتك أيها الملك، أيها النبى

فى ضجيج الزمن سيختفى جرس ملكك..

ستنسج الحياة من كليكما معا..

دودة تعيش إلى الأبد".

"انظر.. النجم الذى يخفق هناك

من بحر الليل والسماء،

فى دائرة الخلود هو،

وهو الذى سيقودنا من العناء

إلى الخلاص..

يقول الرابع وهو يبتسم

"تعالوا نؤمن".

صامتون كلهم.. يلقون ظلالهم

على الدار..

وعلى الحائط يرتعش القلق

يضطرب مع نفسه..

وعبر النافذة.. يطل الأسى

ويبتسم له فى هدوء قائلاً:

إنهم إخوتى.

الأمير الصغير يصيبه الهرم.. للشاعر يعقوب باسار (١٩٧٥)

ربما كان الأمر هو ذا..

وصلت إلى نقطة التشبع..

فعلت ما فعلت وما عاد هناك

ما يلزمنى بالمواصلة.

أعطيت الكلمات ما للكلمات، وللحب

ما للحب. أما لنفسى؟

كنت شاعر المملكة..

بها اثنان يحكمان فى الليل وواحد فى النهار.

عندما أنام ـ أكون أنا من يحلم بى

وفى النهار.. لا توجد للحلم بقية.

فى المساء يصعد الملك ويضىء نورًا بالمصابيح

المعلقة على سحاب منخفض.

والنار مثل الرجل محبوسة

فى زجاجة معزولة.

راكض.. للشاعر دوف حومسكى (١٩٧٤)

يركض بسرعة تصيب بالدوار

(يبدو لى أنه أنا)

لا يتعثر

لا يبطئ

لا ينجرف مع الريح

التى تهب فى اتجاه

معاكس..

يركض.. إلى الأمام

إلى بعيد

يصبح فجأة نقطة

ضئيلة صغيرة متضائلة

متى يعود؟

متى يعود؟

إنى أنتظر فى جميع المحطات

على التوالى

لحظة عودته.

عندما تقول حياتى.. للشاعر دوف حومسكى (١٩٧٤)

عندما تقول حياتى

ماذا تعنى؟..

هل تعنى الأمانى المشتعلة

كمشاعر خفية فى غابة أبدية؟

هل تضع فى الحسبان

كل الطرق المقطوعة

التى خططت فى تدقيق

أن تضيئها جيدا؟

بالمناسبة أثناء الحساب.. حاول

أن تحذف..

أيامك الحزينة ولياليك المفزعة

وتأمل الباقى..

تجده غاية فى القلة.

من المؤكد أنك رغبت تحت

غطاء النسيان..

أن تزرع خلفك سرا

وورود الراحة والفرح رغم أنفها.

عندما تقول.. حياتى

يكون واضحًا لك

عندئذ..

ماذا تعنى.

أغانى أرض صهيون.. للشاعر يهو دا عميحاى (١٩٧٤)

على الكلمات الأخيرة التى لفظها طرومبلدور

ما أحلى الموت فى سبيل أرضنا، بنوا الوطن الجديد،

مثل نحل الحقل فى مجموعات مجنونة.

حتى ولو لم تكن هذه كلماته،

أولو أنه قالها ثم اختفت

لظل مكانها محفوراً كالكهف

فاق الملاط الأحجار صلابة..

هذا هو وطنى..

الذى يمكننى فيه أن أحلم دون أن أسقط

وأن أرتكب أعمالاً سيئة دون أن أضيع

وأن أهمل امرأتى دون أن أصبح معزولاً

وأن أبكى دون خجل وأن أخون وأكذب

دون أن أتعرض للهلاك..

هذه هى الأرض التى غطيناها بالحقول

والغابات..

ولم يكن عندنا وقت لتغطية وجوهنا

فهى عارية بتقلص الحزن وتقطيبات الفرح

هذه هى الأرض التى يسكن الأموات تربتها..

بدلاً من الفحم والذهب والنحاس

وهم الوقود لمجىء الخلاص.

أريد رجلاً حكيماً .. للشاعرة حدفاه هركابى (١٩٧٤)

أريد رجلا حكيما

منذ ستمائة عام

وأنا ماضية فى التجوال..

أمر بأنوار البحر

والحيتان..

وبالأرض وكل ما فيها..

ورجال يأتون نحوى

وفى أيديهم أصوات ورياح

وأصداء.

بعيدًا.. بعيدًا..

أرى.. مخاوف

وأصوات حداد

وحطام مخيف

يعلو من الغابات

ويرسم أشباحا.

لكن دائمًا، أبسط موتى

على كومة من الشمس كبيرة

ويبدو لى أنى أحلم بدمه.

أريد رجلاً حكيمًا

ولا أريد شيئًا عداه.

أريد رجلاً بلا قوة.. للشاعرة حدفاه هركابى (١٩٧٤)

أريد رجلاً بلا قوة

يأخذنى بكل قلبه

ويأخذ نفسى له

كما يشتهى ويروق له

يملك مقاليدى.. برقة

بحب ليس له مثيل

من أول السماء إلى

نهايتها..

أريده يسكن معى

فى كل دروب الشمس

فى كل زوايا الشمس

فى كل أطرافها..

يرينى الخير..

والشر.. وكيف

يبزغ النور

وكيف تهب الريح

الرقيقة..

أريد رجلاً بلا قوة.

السلام أمر هو الغاية

ولا غاية له..

لذا.. فإنى أقول

الحزن هو مجرد حزن

والألم ليس سوى الألم.

حتى الجبال يمكن تحريكها

رغم قدرتها على الرفض.

حتى الجبال يمكن أن ترق.

أحيانًا حينما أرى، كيف

تنتهى أرض..

وكيف تبدأ أرض أخرى

أحلم بالسكون وبكل أسبابه ..

غريب أن حجرًا مالحًا

موضوع فى وسطها..

وأن أعشابا برية

وحشية..

تنبعث من كل أرجائها.

أريد رجلاً بلا قوة

يأخذنى بكل قلبه.

الفصل السادس

قصص الشحن الإيجابى
والتخويف من معاداة السامية

- العشب الأحمر يشتعل فى بطء..
- النهر الأخضر يتدفق للأبد ..
- للكاتب بنحاس ساديه
- أنا مهاجر .. للكاتب ى. ابى شبى ماءور
- مآخذ الشيطان على فاوست .. للكاتب ش. د. بونين

الشحن الإيجابى

تمثل الرواية القصيرة التى تحمل عنوان "العشب الأحمر يشتعل فى بطء.. النهر الأخضر يتدفق للأبد" نموذجا للكتابة الأدبية الصهيونية فى قالب رمزى.. فيها يحاول الكاتب بث توحد صوفى فى نفس قارئه بالأرض العربية عبر منظور المقولة الصهيونية حول الأرض اليهودية التاريخية، وهى تمثل محاولة لشحن القارئ الإسرائيلى بشحنة إيجابية فى محاولة لتخفيف أثر الصدمة والفزع الناتجين عن الهجوم العربى، وهى تسير فى اتجاه قصيدة "أغانى صهيونية" فى الفصل الخامس التى تؤكد أهمية مشاعر التماسك والترابط حول الوطن اليهودى فى الظرف العصيب، مع إشارات إلى الزمن المعاصر الذى تدور فيه القصة مثل إشارة إلى عبد الناصر وكنيدى، الرئيسين المصرى والأمريكى.

وهو يستمد رموزه وتراكيب الحدث فى القصة من الموقف الراهن المباشر دونما استخدام رموز تراثية أو خوض صريح فيما يسمى بالعلاقة التاريخية وتجسد الشخصيات الثلاثة الأساسية فى القصة ذلك البناء الفلسفى الذى تقوم عليه المقولة التى تدعى أن أرض فلسطين هى حق لليهو د كإرث تاريخى عن العبريين القدماء.

أفيجيل الأرض تتطلع إلى أفشالوم (الشعب اليهودى) الذى تصلها به وشيجة الدم، فهى أخته محروسة منه بلا إرادة منها أو منه.. لكنها لا تنشغل عنه ففى

أعماقها تتردد دائمًا أغنية التوحد به.. أغنية العشب الأحمر، أى أغنية العشق الأبدى الذى رمز له اللون الأحمر المحاط بلون النهر الأخضر المتدفق بينهما للأبد. الأغنية تدوى فى باطنها رغم الأضواء الخافتة والرياح الساخنة والدور الواطئة القاتمة الغارقة فى السبات والقمر الأصفر الباهت، رمز الموت، وكلها تمثيلات أدبية لما يقال صراحة فى وصف حالة الأرض المقدسة عبر ما يسمى بسنوات النفى اليهودى. هى لا تيأس من عودة أفشالوم. فالنجوم البعيدة التى تومض من خلف الضباب تشدها إلى خيوط الأمل وطيور الكراكى القليلة المهاجرة.. رمز طلائع الهجرة اليهودية.. تبشرها بقرب وصوله.

افشالوم الشعب.. راقد بين اليقظة والمنام تطالعه رؤيا التوحد بأفيجيل التى التحقت بدار الدعارة وفقدت طهارتها.. لأنها تعيش فى كنف العرب، فى حراسة اليهودى القديم الذى ينتظر الخلاص من السماء ولا يتحرك لنجدة الأرض. يعيش افشالوم وأمل تطهرها من الدنس يحدوه ويراوده تجسده له رؤيا تطهرها بدمائها عندما تذبح لتبعث نظيفة من جديد.. أى عندما تغسلها الدماء من آثار العرب فيمكن بعد ذلك أن يتم التوحد بينه وبينها.

وخلال مسيرة أفشالوم وافيجيل فى الطريق الطويل.. نحو اللحظة المرجوة لتحقق الرؤيا يظهر لهما الشخص الغريب المفزع يعترض المسيرة ممثلاً للطرف العربى. الشخص الغريب يظهر متلصصًا عن بعد.. متربصًا مراقبًا فى الظلام.. وتجرى أحداث رامزة عديدة على طول الطريق تغذى إحساس التقارب.. فرؤيا التوحد تزداد اعتمالاً فى نفس افشالوم رغم وحشه الطريق وإقفاره. هو يتطلع إلى تحقيق الرؤيا يشده ويحفزه ما فى قدمى أفيجيل من فطرة وثنية قدسية. يقطع الاثنان أشق مراحل الطريق وعورة حيث تنتصب الصخور وتزداد المنحدرات حدة والأغصان المعوقة اشتجارًا.. ومع ما فى هذه المرحلة من مشقة فإن أفشالوم يؤكد إصراره على الالتصاق بأفيجيل فيما يرويه من رؤيا جديدة يشاهدها فيها داخل الوردة البيضاء قدسية ناصعة تجذبه وتصاعده من وجده الصوفى بها.

وفى نهاية الرحلة يصلان إلى منطقه البستان المستوية الهادئة الآمنة حيث يتم لهما التوحد ممثلاً فى اتصالهما الجنسى.

ولحظتها تعبر فوقهما أسراب الكراكى المهاجرة فى قوتها الأساسية إشارة إلى تمام الاستيلاء على الأرض وتدفق موجات الهجرة اليهودية إليها.

غير أن السعادة لا تكتمل.. فأثناء عملية الاتحاد الجنسى يظهر الشخص الغريب ويندفع نحوه أفشالوم فى اهتمام فيتلقى منه طعنة تصيبه بجرح ينزف فى استمرار ولكن دون غزارة.. إشارة إلى امتداد الصراع والاستنزاف العربى. ولا ينسى الكاتب هنا أن يصور العربى صورة الغادر الذى يطعن البطل فى الظلام والذى يشبه صوته فحيح الحرباء وهى من الصور المعتادة لتشويه صورة العربى ونزع الصفات الإنسانية عنه تيسيرًا لقتله دون مشاعر بالذنب باعتباره حشرة أو حيوانًا مفترسًا.

ومع ذلك يقول الكاتب إن الأرض لن تتخلى عن الشعب، وستظل تحتضنه فى حنان رغم امتداد الليل والوحشة. فهى على ثقة من أن الصباح سيطلع وسيأتى آخرون يؤيدونه ويضمدون جراحه التى أحدثها الشخص المبهم كيما تحل ساعة الفرح والألوان الزاهية والنجوم الساطعة والأزهار البهية.

هكذا يحاول الأديب علاج آثار صدمة حرب أكتوبر من خلال العزف على مقولة الترابط بين الأرض المقدسة واليهود فى صورة رمزية.

***

أما القصة الثانية التى تحمل عنوان "مهاجر" فتدعو إلى التماسك من خلال الحديث عن ثلاثة شبان يهود فى روسيا يريدون الهجرة إلى إسرائيل والتخلص من ماضى آبائهم الذين نسوا اليهودية واندمجوا فى الثورة الشيوعية ومنظماتها. القصة من خلال الحديث عن تحمل الشبان للمعاناة وتجربة السجن فى روسيا عقابًا على حلمهم الصهيونى فى الالتحاق بإسرائيل تريد توصيل رسالة بأن على الإسرائيليين أن يصمدوا فى مواجهة الصدمة، فالمدد البشرى اليهودى آت فى صورة هجرات جديدة.

***

أما القصة الثالثة التى تأتى بعنوان "مآخذ الشيطان على فاوست" فهى تجسد أسلوب الدعوة إلى التماسك من خلال إثارة الفزع من تجارب معاداة السامية أى معاداة اليهود فى التجارب القديمة النازية. إن الرسالة هنا تحاول ضمنيًا الربط بين الهجوم العربى وبين تاريخ الاضطهاد لترسيخ معنى الصمود المطلوب، فليس هناك بديل عن ذلك.

تمثل هذه القصة (مآخذ الشيطان على فاوست) نموذجًا فنيًا مركبًا لأدب مقولة معاداة السامية فى جانبها الوصفى.. وفى ضوء التنوير الذى نقدمه بشأنها سيكون فى مقدور القارئ اكتشاف طبيعة القصص القصيرة التالية الداخلة فى نفس القسم فهى جميعًا أقل تركيبًا وأشد تسطيحًا فى التعبير عن اتجاه المقولة.

فى القصة يستخدم المؤلف الشيطان فى توصيل الرسالة. ومن المعروف أن الشيطان فى سفر أيوب يلعب دور الشر.. والسفر من كتابات التأمل اليهودية المتأثرة بروح الحكمة والتفلسف اليونانى خلال فترة الحكم اليونانى فى الشرق. وهو يناقش مشكلة الشر فى العالم.. ويطرح تساؤلاً محددًا حول مبررات العذاب الإنسانى الذى يلحق الأخيار من الناس. ولقد حاول كاتب سفر أيوب أن يفسر هذا الشر على أنه ابتلاء تنزله القوى السماوية العليا بالأخيار لاختبار إيمانهم وصمودهم. وما يعنينا هنا هو دور الشيطان.

فالشيطان يظهر فى سفر أيوب على أنه أحد ملائكة البلاط الإلهى الذين يقومون بتقديم التقارير إلى الإله عن أحوال الأرض وسكانها. وهو يظهر حاقدًا فى سعيه ضد أيوب. فهو يحسده على ما ينعم به من ثروة ولذا يوعز إلى الرب بإنزال ضربات متلاحقة به بدعوى أن هذا سيكشف عن ضعف إيمانه وزيف عقيدته.

هذا هو دور الشيطان فى سفر أيوب. دور محرض القوى السماوية العليا على إنزال العذاب بالناس.

ودوره فى مسرحية "فاوست" كما يفهمه كاتب القصة بسيط.. فهو ببساطة دور الشرير الذى يغوى البشر بمغريات معينة ليفرض عليهم ممارسة الشر والوقوع فى الخطيئة.

فما الدور الذى ينيطه كاتب القصة بالشيطان هنا؟

إن الشيطان يتحول أمام هول العذاب اليهودى الذى يسوقه الكاتب فى صورة مؤثرة إلى قوة للخير تستنكر هذا العذاب. فالشيطان يصعد إلى السماء كعادته فى سفر أيوب ليقدم تقريراً عن سير الأحوال فى الأرض وهو فى هذه المرة لا يصعد ليشى بإنسان كما فعل مع أيوب بل هو يصعد ليحفز القوى السماوية على التدخل لرفع هذا العذاب. غير أنه يصاب بخيبة أمل فهو يواجه بالقوى السماوية وقد سرت فيها روح البلادة والترهل والتخلف حتى ما عاد يعنيها ما يجرى على الأرض. تلك القوى السماوية التى قررت الكتابات اليهودية الدينية أنها تساند اليهود وتحميهم - يقول الكاتب - إنها قد تخلت عن دورها القديم هذا وما عاد لها شأن بما يؤول إليه حال اليهود. هذا هو المضمون الأساسى للقصة.

فما الذى يريد الكاتب قوله.. ما من شئ يمكن للقارئ فهمه سوى أنه ينبغى على اليهود أن يدركوا أن العالم كله حتى القوى السماوية فيه لا تعبأ بعذابهم بل إنها تنتقم ممن يتصدى للدفاع عنهم فتضعه مثلهم موضع العذاب كما يحدث للشيطان فى القصة. وبالطبع فإن الدعوة تكون أنه ينبغى لليهود أن يتجمعوا فى مواجهة هذا العالم الشرير.. نفس منطوق مقولة معاداة السامية فى جانبى الوصف والحل، يتم إنتاجه من كاتب علمانى لا يؤمن بالديانة اليهودية ويتهكم على أسفارها ليجرى توظيف المقولة فى ثوبها الأدبى لإدانة حرب التحرير العربية على نحو ضمنى واستنفار الهمم اليهودية ضدها باعتبارها امتداد للاضطهاد النازى الكريه عندنا وعندهم وعند أصحاب الضمائر الأخلاقية فى العالم. هكذا يتم التزييف والخلط بين حرب تحرير واضطهاد عنصرى مرفوض.

العشب الأحمر يشتعل فى بطء.. النهر الأخضر يتدفق للأبد، للكاتب بنحاس ساديه.

بدت من خلال النافذة التى كان يقف إلى جوارها أفشالوم بعض أشجار الزيتون وسياج يحيط بفناء، ومجموعة من الأسطح الآجرية، كان قمر منخفض أصفر مغلف بالضباب يسدل ضوءه الشاحب خارج النافذة لم تكن الريح تتحرك وكأن الهواء الساخن اللافح محملاً بمذاق الغبار.

الصمت محلق.. راحت أفيجيل تتطلع إلى الظلمة من فوق كتف أفشالوم وهى تقف خلفه تكاد تلامسه.

كانت النجوم القليلة التى تلوح خلف الضباب تومض. فى شحوب فى سكون. كانت كأنها ترقبهما وتنظر إليهما.

على حين غرة قالت أفيجيل: إننى.. إننى أشعر وكأن النجوم جميعًا تنظر إلىّ الآن ولم يجب افشالوم. انقضى بعض الوقت. مدت ذراعها فلمست يده بأطراف أصابعها نظر إليها فسحبت يدها وقالت هامسة:

- تعالى نخرج..

- إلى أين؟

- إلى أى مكان.. نذهب خارجا.

- إلى أى مكان؟

- ليس مهمًا.. تذهب إلى أى مكان.

- أى مكان به أعشاب.. إلى أى نهر.

- لكن.. ليس هنا أى نهر فى القدس.

- صحيح.. ليس هنا أى نهر.

تحركا على مهل وخرجا من الحجرة، كان الممر غارقًا فى الظلام.. لكن خيطًا من الضوء الأصفر الباهت كان ينفذ من حجرة الخياط صاحب الشقة عبر فتحة الباب الموارب وتمتمة خافتة تتردد. توقفا للحظة عن السير.

فزع الموت حل بى رعشة تتولانى، تمتم الخياط المسن فيما يشبه النواح.

إنه يتلو المزامير.. قال أفشالوم وكأنه يفسر لها.. واصلاً السير.

خرجا من الممر وهبطا على السلم الحديدى الدائرى.

لم يكن فى العطفة المواجهة للبيت.. كائن حى واحد كانت البيوت الواطئة المعتمة تقف وكأن كلاً منها يستند إلى الآخر فى سباته.

كان القمر المنخفض قد توارى خلف الأسطح وتسربل كل شىء برداء من الظلام الثقيل الساخن.

فى تلك اللحظة اقترب آتيا من عل من جهة الجنوب سرب يضم ستة أو سبعة طيور صفراء سود الأجنحة من فصيلة الكراكى. كانت تطير على هيئة رأس سهم فى اتجاه الشمال وهى تنهب آفاق الفضاء فى سكون وسرعان ما ابتعدت وابتلعها الظلام.

عندما خرج أفشالوم وأفيجيل من الأزقة المتداخلة المتشابكة كحروف الكتابة العربية.. كانا قد وصلا إلى سوق "محنيه يهودا" القفرة، سارا الطريق بين

الأرصفة الخالية والحوانيت المهجورة، لم يكن هناك سوى عدد قليل من مصابيح الطريق مضاء ينشر مساحات ضئيلة من الضوء الخافت. كانت بعض القطط المتباعدة تنقب هنا وهناك فى أكوام الزبالة فى طرف السوق، وإلى جوار شارع يافا وعلى مدخل أحد البيوت جلست عجوزان على قطعة سجاد بالية وإحداهما تتحدث فى صوت مكدود.

إن هذا الفتى يعمل فى المكتب منذ عام.. وهو نائب مدير ممتاز.

مرا بهما وعندما وصلا إلى شارع يافا انحرفا يميناً اتجاه وسط المدينة. سارا على مهل والصمت يخيم عليهما.. متقاربين حتى كادت يداهما تتلامس كل بضع لحظات، عندما عبرا ميدان همرجماه اتجها شمالاً ودلفا إلى عطفة ضيقة طويلة يحدها حائطان حجريان رماديان يكشف عنهما ضوء حائل. فى جزء من سماء العطفة كانت بعض الأشجار تغطى العطفة كالسحاب، عندما بلغا هذا الجزء أطبق عليهما الظلام ثانية بدرجة حالت بين أفشالوم الذى أدار رأسه فى تلك اللحظة إلى افيجيل وبين رؤية ملامح وجهها.. وعندئذ سألها.

- فيم تفكرين يا أفيجيل؟

- إننى لا أفكر.. فقط شىء ما يقول فى داخلى شيئا ما.

كان صوتها يحمل رنة غريبة ربما مثل رنة الفرح... رنة يفهمها أفشالوم.

وبلا قصد ارتسمت بسمة خفيفة على شفتيه. شعرت أفيجيل ببسمته فرأت أن من واجبها أن توضح له..

قالت لك شىء ما من داخلى يغنى.. لكن دون نغم.

- بماذا يغنى.

- إنه يغنى هكذا.

"العشب الأحمر يشتعل فى بطء ـ النهر الأخضر ـ النهر الأخضر يتدفق ـ النهر الأخضر ـ النهر الأخضر يتدفق للأبد".

- وماذا بعد ذلك؟

- ليس بعد ذلك شىء فما قلته يتكرر ثم يتكرر.

- هذا لطيف.

كان من الممكن فى تلك اللحظات إدراك أنها فى سعادة الأطفال.. وكان من الممكن سماعه، هو يطرى الأغنية التى يغنيها شىء ما " بداخلها ".

عندما وصلا إلى طرف العطفة حيث يضىء أحد مصابيح الطريق توقفت وانحنت وبدأت تحل أربطة نعليها.

خلعت أحد نعليها، ثم خلعت الثانى وحملتهما فى يدها.

هل سيرى حافية أمر صعب؟

نظر إليها جزلاً بعض الشىء ومترددًا بعض الشىء وكأنه يبحث مدى الصواب فى الأمر. استقرت نظراته على وجهها. وجه نحيف إلى حد يبدو وكأنه مشحون بالألم.

شفتان ممتلئتان.. مكتنزتان تقريبًا. لونهما كلون فاكهة صفراء نادرة. عينان صافيتان مشرقتان. موجتان من الشعر الأصفر تنسدلان على كتفيهما. عندما وقع الضوء الشاحب الرقيق المنبعث من أحد مصابيح الشارع على وجهها.. بدا له وجهها جميلاً ذا جمال عميق وحشى بدرجة جعلته لا يقدر.. على رفع عينيه عنه لبرهة طويلة.

نكس نظراته فرأى قدميها العاريتين القويتين اللذيذتين. لاح بذهنه أن بهما شيئًا وثنيًا قال:

- لماذا تريدين السير حافية؟ أتشعرين بالحرارة لهذه الدرجة؟

- ليس إلى هذه الدرجة ولكننى أريد أن أحس.

- أن تحسى؟

- أن أحس بالتربة.

- ليس هنا أى تربة.. ليس هنا سوى الطريق.

- صحيح ليس هنا تربة.

- واصلا سيرهما.. قالت لكننى أشعر أحيانًا أننى أستطيع أن أحس بالتربة تحت الطريق.. ليس دائمًا.. لكن أحيانًا.

- متى مثلاً؟

- الليلة.. الليلة أستطيع. ساد الصمت بينهما.. بعد لحظات سألت أفيجيل:

- أحقا تظن أننى مضحكة؟

- لماذا؟

- لأننى أتحدث دون منطق.

- لا.

- نعم. لكنك لا تسخر منى لمجرد أننى أختك. لكن فلتعلم أن لدىّ منطقًا.

- إننى أصدقك.

- إننى عندما أفكر يكون لدىّ منطق. غير أنه عندما أبدأ فى الكلام تتخذ الأفكار فجأة كل أنواع .. وأشكال الأعشاب مثلاً.

- ألهذا أردت الذهاب إلى مكان به أعشاب.. إلى مكان تكونين فيه مهمومة.

- ربما.

- لكننى أفهمك.

- نعم. ولذلك جئت إليك. وساد الصمت ثانية.

- هل نسير طويلاً؟

- لماذا تسألين؟ هل تعبت؟

- كلا . كلا .. مطلقا . لكننى أردتك أن تقولى لى.

- لماذا؟

- لأنك إذا قلت نسير طويلاً، فإننا نسير طويلاً. وإذا قلت نقصر السير قصرنا السير.

لكنه لا يقول شيئًا، فقط يأخذ نعليها من يدها ويحملها بأحد أصابعه ويمضيان على هذا الحال لفترة دون كلمة واحدة.

هما الآن يسيران فى شارع الأنبياء. على ناصية شارع " الربى قول " وأمام مقهى " باط" وقف شخص بجوار جذع إحدى الأشجار العالية وكأنه فى حالة تربص. كان من المستحيل تمييز وجهة فى الظلام لكنه بدا كأنه شاب نحيف غاية فى الطول لم يعره أفشالوم اهتماما، إلا أن افيجيل لسبب ما أخذت بعض الشىء عند مرورها إلى جانبه.

ساراً إلى بعيد.. عندما لاحت لهما قباب المعبد الروسى التى تشبه حبات البصل سألها أفشالوم.

- قولى لى يا أفيجيل.. ما هذا " العشب الأحمر"؟

- أى عشب أحمر؟

- العشب الذى فى أغنيتك.

- ليست هذه بأغنية.. إننى لم أدع أننى ألفت أغنية.

- إذن.. العشب الذى فى قصيدتك.. إننى لا أفهم ما هو.

- لكننى أفهم.

- اشرحى لى إذن.

- لا.

- لم لا؟

ابتسمت أفيجيل وقالت.. لأنك أنت الآخر تخفى عنى أسرارًا.

- أية أسرار؟

فى هذه اللحظة كانا يجتازان ساحة الروس. عند وصولهما إلى المعبد توقفا برهة متحيرين بين الاتجاه إلى شارع يافا أو التوجه صوب منطقة الأشجار وصوب حديقة دار البلدية.

وأخيرًا صوبا ناحية الأشجار.

قالت أفيجيل: عندما وصلت إلى حجرتك كانت الشمس آخذة فى الغروب.. وعندما دخلت رأيتك راقدًا على السرير وعلى وجهك.. على وجهك ضوء ما. ربما كان ذلك ضوء الغروب. جلست فى صمت ورحت أرقبك وأنتظر صحوك.

جلست ساعة وربما أكثر. كان غريبًا أن أرى وجهك دافقًا بالحياة على تلك الصورة التى بدا بها. فى البداية كان مقطبًا تكسوه سحابة من الكدر.. بل وغمره للحظة رداء السخط والفزع حتى ارتعبت وكدت أوقظك. بعد ذلك.. أذكر أن تعبيرات وجهك اتخذت سمة التفكير كما لو كنت تصغى لشىء ما وتقول شيئا ما. وفى النهايه خيم على وجهك تعبير رائع من.. من الرضا والغبطة.. لكنك نمت كل ذلك الوقت. أحقا كنت نائمًا؟

- كلا.

- كنت يقظًا إذن.. أكنت تتظاهر بالنوم؟

- كلا.

- صمتت أفيجيل لحظة كما لو كانت تفكر فى الأمر. جلست على حجر تحت إحدى الأشجار.

وأخيرًا قالت.. إننى أستطيع أن أفهم هذا.

جلس أفشالوم إلى جوارها على الأرض.. على العشب الجاف قالت:

- احك لى عما كان يحدث لك بينما كنت راقدًا مغمض العينين؟

- أحقًا تريدين أن تسمعى؟

- نعم.

- سأقص عليك. بدا الأمر على النحو التالى:

علمت أن فتاة كنت أعرفها تقيم فى دار للدعارة على ساحل البحر من تل أبيب. كان وقع الخبر أليمًا على نفسى.. وعلى الرغم من أنه لم تكن لى جريرة فيما حدث للفتاة فقد حدثتنى نفسى بضرورة الذهاب لإنقاذها من ذلك المكان. فقمت متوجهًا إلى هناك.

قالت أفيجيل التى كانت تصغى فى اهتمام بالغ.. عل ما بدا على وجهك من سخط كان فى تلك اللحظة.

لم يجب أفشالوم.. وواصل حديثه وصلت إلى المكان ساعة الغسق بينما كان الساحل مقفرًا تمامًا.

رأيت بيتًا قديمًا من طابق واحد تآكل طلاوة الأخضر بفعل الرياح المالحة. لا أذكر ما إذا كانت على القرب بيوت أخرى أم لا.. ولكن على أى حال فمن داخل ذلك البيت وحده كان ينبعث ضوء أصفر حائل. كان الضوء خارجًا من باب دكان صغير لبيع السجائر وأدوات الكتابة، ويبدو أنه كان غطاء لبيت الدعارة. كان هناك ضوء آخر غاية فى الضعف. ينبعث من بين فتحات الشيش فى أعلى السطح حيث كانت الفتاة هناك كما فهمت.

دخلت إلى الدكان. كان يجلس خلف منضدة البيع رجل يهودى خائر القوى. رأسه ملقاة على صدره وعيناه مغمضتان. كان يتظاهر بالنوم إلا أننى أدركت أنه يرمقنى بنظرات إحدى عينيه التى يفتحها بدرجة بسيطة.

انقضت فترة من الوقت وكل منا ينظر إلى الآخر بهذه الصوره، كان يدرك السبب الذى من أجله جئت. غير أنى لم أكن أخشاه على الإطلاق. ظل يتجاهلنى إلا أنه فى النهاية فتح عينيه وقال لك:

- ماذا يريد السيد؟

أجبته بأننى أريد شراء ظرف كى أرسل خطابًا إلى فتاة، اهتز هزة خفيفة لدى سماعه أسلوبى الساخر وخاصة كلمة فتاة فلقد كانت تحمل تهديدًا واضحًا. قدم لى كراسة صغيرة لم أطلبها ولم تكن بى حاجة إليها. وضعت على منضدة البيع ورقة مالية من فئة خمس ليرات.

قال الرجل إنه ليس لديه فكة، وخرج يستبدل الورقة بعملات أصغر. كان قصده واضحًا لى.. فلقد ذهب ليستنجد براعى المومسات. كنت أعلم أن حربًا قاسية تنتظرنى.

خرج فى خطى سريعة منفرة. ولم أضع أنا وقتًا فأسرعت بارتقاء السلالم المؤدية إلى أعلى السطح، عندما وصلت رأيت أنه لا باب هناك بل مجرد حاجز. أزحت الحاجز جانبًا فانكشفت أمام عينى حجرة غاية فى الصغر ذات مظهر بائس.. بها سرير وصندوق ومنضدة صغيرة عليها كوب به بعض الورود الذابلة. كانت الحجرة بكل ما فيها ملفوفة فى رداء من الضوء الباهت المائل إلى الحمرة ينبعث عن فتيلة مصباح صغير من مصابيح الجاز.

والفتاة.. سألت أفيجيل هامسة: والفتاة؟ أجاب هو: كانت تجلس على الكرسى. وجهها إلى الشباك وظهرها تجاهى.

عندما دخلت لم تتحرك وظلت جالسة كما هى.. منحنية بعض الشىء ورأسها مائلة على صدرها. اقتربت منها، وعندما درت حولها ووقفت فى مواجهتها رأيت دمًا يغطى رقبتها ويديها وثوبها. وعلى الأرضية كانت السكين التى طعنت بها حتى الموت ملقاة تحت قدميها.

شملتنى حالة من الذعر. خرجت من الحجرة أتخبط بين اليمين واليسار. حتى وجدت نفسى على سطح البيت.

كان الليل قد أسدل ستره وساد الظلام التام. من أسفل كان يرتفع هدير البحر وشظايا الزبد تتناثر إلى أعلى.

لكن من فوقى انبسطت سماء تطفح بفيض من النجوم.. فيض لم أر مثله من قبل، وفى طرف السطح وقف شخص يستند إلى السور.. عرفت أنه الراعى.

- الراعى؟

- راعى المومسات.. لكن لسبب ما سميته بينى وبين نفسى الراعى فور رؤيتى له.

- غريب.

نعم.. ولكن لم تكن فى ذلك أية غرابة فى تلك اللحظات. لقد كان كل ما حدث قبل رؤيتى له وما حدث بعد ذلك واضحًا ومفهومًا فهمًا غاية فى العمق. حدث كل شىء، كما لو كان وفاء بقدر، كان كأنه.. كأنه صلاة.

- نعم. قالت أفيجيل فى همس.. أعتقد أننى أفهم هذا.

عندئذ اقتربت منه لست أعلم ما إذا كنت فى تلك اللحظة أنوى نزاله. ربما نعم وربما لا. لم أكن أعلم ما إذا كان هو القاتل حقيقة. لم أكن أعرف حتى ذلك الوقت أمورًا عديدة وكان علىّ أن أعرفها. عندما اقتربت منه وجدته شابًا كابن الثلاثين. كان يقف وهو يدخن سيجارة فى هدوء. أشار إلىّ بيده أن أنظر إلى النجوم وكأنه يشير إلى شىء مملوك له أو على أى حال شىء قريب إليه للغاية.

رفعت عينى ونظرت إلى النجوم بدت كبيرة، بصورة عجيبة، قريبة للغاية، براقة، منها الأزرق ومنها الأصفر ومنها الأحمر. لبعضها ذيول هائلة من النور وجميعها دافقات بالحياة.. تسكب ضياءها فى كل اتجاه.. تختلط وتمتزج وتتفجر لتملأ فضاء الكون كله.

- وقال الشاب هذه سوسنة الرب.

ولم أجبه فأضاف:

- إن الأوراق تتفتح.. النجوم تتباعد.. الكون يصل إلى الأزهار إلى غايته، تعود زهرة الرب إلى الانحباس.

حينئذ يعود كل شيء من جميع الأبعاد اللانهائية ليتوحد فى نقطة واحدة. يتجمع كل شيء فى ذاته.. فى قلب السوسنة. كل الأشياء التى ضاعت وكل الأوقات التى انقضت وكل ما كان وكل من كان، كل ما ذهب.. يعود وكل ما انتظر يصل وكل ما أعطى يؤخذ وما مات يبعث.

لأن الكل واحد.

أصغيت إليه وعندما أنهى كلامه أدار وجهه عنى وعاد يحملق فى النجوم. كان وكأنه ينتمى إلى عالمها.

واستدرت أنا سائرًا وعندما وصلت إلى مدخل الحجرة توقفت ونظرت إلى الداخل. وعندئذ رفعت الفتاة رأسها فى بطء وفتحت عينيها ونظرت إلىّ وعلى محياها ابتسامة سعادة مشرقة.

صمت افشالوم.. كانت افيجيل تجلس غارقة فى أفكارها وهى ترسم بإصبعها دون وعى خطوطًا على التراب. وفى النهاية قالت فى همس:

- مَن كانت تلك الفتاة؟

لم يجب افشالوم

- لقد قلت إنك كنت تعرفها.. إذن فأنت تعرفها

- ألم يكن ذلك مجرد حلم.

- إننى أعرف من هى.

- إذا كنت تعلمين فلماذا تسألين؟

- كى تقول لى.

- ولم يجب افشالوم..

- افشالوم.. هل هذا صحيح؟

- نعم..

فى تلك اللحظة وبصورة فجائية رفعت افيجيل رأسها كما لو كانت حيوانًا يتسمع صوتًا غريبًا. نظر إليها افشالوم؟

- انظر.. همست.. إنه يقف هناك.

- مَن؟

- الشاب.

وفى الحقيقة كان شخص ما يقف إلى جوار جدار المعبد. كان يقف فى الظلام.. لأول وهلة كان يبدو كظل أو كبقعة كبيرة.. لكنه بتدقيق النظر فيه كان يمكن تمييز شكله كرجل. ربما كان شابًا طويل القامة صلب العود.

كان يقف دون حراك ولم يكن وجهه ظاهرًا.

- هذا هو الفتى الذى كان يقف إلى جوار الشجرة أمام مقهى باط.. همست افيجيل!

- كيف عرفت؟

- لست أدرى.. هيا بنا نذهب.

- ومالك وإياه؟ ليقف كما يشاء.. قال افشالوم فى دهشة.

- لست أعلم.. فى الحقيقة لست أعلم.. قالت وهى تنهض من مكانها.

وعندما خرجا من ساحة الروس توجها يمينا ومرا أمام مبنى البريد المركزى ووصلا إلى شارع يافا.

كانت هناك بعض واجهات المحال لا تزال مضاءة بينما بدا فى الشارع بعض عابرى السبيل. تلكأت افيجيل أمام بعض الواجهات.. أمام واجهة محل للمجوهرات، وأمام واجهة محل للقبعات.

فجأة طلبت من افشالوم " أن يحتفى بها فيقدم لها أى نوع من الحلويات العربية".

- أين أجد لك الآن حلوى عربية؟

- إن بحثنا.. وجدنا.

- إنك بذاتك حلوى عربية.. قال افشالوم.

أجالا النظر فيما حولهما. كانت كل المحال مغلقة. من ناحية ميدان صهيون كانت تنبعث بعض الأضواء الملونة. بعضها ثابت وبعضها يضاء ويطفأ كل حين. لكن هذه الأضواء كانت لوحات إعلانات على أسطح بعض المباني بينما بدا الميدان نفسه مهجوراً خالياً.

وعندما وصلا إلى ميدان "عدياه" رأيا محلاً واحداً مفتوحاً رغم الساعة المتأخرة. بدا كأنه بوفيه أو مقهى صغير وضوء غير جرىء.. ضوء كهربائي ينتشر أمام مدخله.

عندما دخلا إلى المحل وجدا نفسيهما فى حجرة ضيقة بها منصة للبيع وثلاث أو أربع مناضد صغيرة. خلف منصة البيع وقف صاحب المكان. رجل هرم متيبس يلبس صدري. كان يقف صامتاً وكأنه قد زرع فى مكانه وعيناه الضيقتان تحملقان فى غير اكتراث، بل وفى بريق ساخط فى جوف الفضاء. إلى إحدى المناضد جلس رجلان وامرأتان من أبناء الطوائف الشرقية. كان الرجلان فى حوالى الأربعين أو أكثر بقليل. كانا يجلسان وكل منهما ينظر إلى الآخر فى صمت. كان كلاهما أصلع الرأس مستديراً وقد ارتسم على وجهيهما تعبير مطموس الملامح. أما المرأتان فكانت كل منهما ترتدى فستاناً وردياً وكانتا أصغر بقليل من زوجيهما. كانت كل منهما تجلس فى مواجهة الأخرى على أحد طرفى المنضدة وهى تنحنى تجاه الأخرى وحديث فى صوت يقظ يدور بينهما.

فى تلك اللحظة كانت إحداهما تقول: هل تذكرين الابن الذى كان آتيا لزيارة أبيه والذى كان شكله مريعاً؟

- نعم.. قالت الثانية.. ما شأنه؟

- لقد تغير.. إنه الآن لا يشبه أباه بوجه عام.

فى عمق الحجرة وإلى المنضدة الأخيرة جلس منفردًا رجل مسن فى حوالى السبعين من العمر.. نحيف.. عظامه بارزة.. عظمتا وجنتيه مشقوقتان وشاربه دقيق.. كانت أمامه زجاجة من العرق لم يبق بها الكثير وكوب من الماء. ربما كان تاجرًا من أبناء الطائفة اليونانية أو البلغارية. كانت تبدو عليه علامات الثقة فى عظمته الشخصية كان منتصبًا فى جلسته وعيناه مغروستان فى زجاجة الشراب وهو يتمتم أو يغنى فى صوت خفيض.

فى إحدى الزوايا كان يتكور على أحد المقاعد قط رمادى.

اشترى افشالوم لافيجيل كوبا من اللبن ونوعًا من الفطير المغموس بالعسل. أقرب الأشياء بالمحل للحلوى العربية.

بينما طلب لنفسه كوبًا من القهوة وجلسا إلى المنضدة المجاورة لمنضدة التاجر المسن. لعقت افيجيل العسل بلسانها وفتتت الفطيرة إلى قطع صغيرة راحت تضعها على مهل فى فمها بينما أنهمك افشالوم فى احتساء القهوة.

كانت هناك ذبابة كبيرة تحوم فى بلاده فى فضاء الحجرة وتصطدم بين الفينة والاخرى بأحد الجدرأن فتتلكأ عليه كالمذهولة ثم تعود إلى التحويم. من الخارج وخلف الفترينة الزجاجية كانت الظلمه سائدة ولم يكن من إضاءة سوى لافتات النيون الملونة تضئ هنا وهناك بلا معنى. فلم يكن بالخارج احد. أما فى الداخل فقد كان نور وكذلك نوع من الحرارة يشمل الجالسين.

حتى افشالوم وافيجيل اللذان كأنا قد دخلا على الفور أحسّا وكأنهما يستقبلان بروح الأخوة من الجالسين.

فى تلك اللحظة كانت الامرائأن تتحدثأن فى مسائل صحية. قالت الأولى:

أننى كما يقولون.. حساسة جدًا. عندما أكل الموز تظهر فى جلدى على الفور بقع حمراء. استغرقت فى التفكير برهه ثم عادت تقول:

ـ أنت حساسة جدًا.

أومأت الثانية برأسها ولم تجب بشىء لم يكن يتردد فى المكأن سوى طنين الذبابة المحوم وتمتمة التاجر المسن. فجأة قال أحد الزوجين للثانى:

الأتراك.. هم الأتراك. لا يفهمون شيئا. كنت مسافرا على إحدى السفن التركية. طلبت أوراق اللعب فاحضر الجرسون ماء قلت له.. أوراق لعب. فاحضر لى خبزا. أحضر لى كل الأشياء عدا ما كنت أريد.

ـ قال الثانى.. كل شىء لديهم.. ايكماك (معناها فى التركية خبز). المترجم.

ـ ايكماك؟

ـ ايكماك.

وخيم الصمت مرة ثانية. تناول التاجر المسن جرعة من العرق وبدأ يغنى لنفسه فى صوت خفيض وبأنفعال سعادة. تجشا وأخرج من جيبه علبة صغيرة تناول منها قطعة من السكر راح يمصها ثم عاد يغنى.

وصمت ثم عاد يغنى.

ومضى وقت على هذا الحال. وفجاة فتح الباب فى بطء ودخل رجل إلى المحل. كان رجلا فى حوالى الستين.. قصير القامة مجعد الوجه وعلى رأسه طاقية حائلة اللون. كان سراويله أكبر من مقاسه. وعلى الرغم من أنه كان محزوما بحزام فقد بدا وكأنه على وشك السقوط. كانت تحلق على وجهه ابتسامه حيه. من هيئته فهم الجمع أنه حارس ليلى فى المنطقة.

عندما دخل اختلفت الأمور بعض الشىء. فقد سارع صاحب المحل الذى كان واقفا حتى هذه اللحظة فى جمود وعدم اكتراث وقدم للضيف على الفور بعض الخيار المخلل ثم الحق به كاسا من الصودا. تناول الحارس قطعة من الخيار وكأنه يتناولها سهواً ثم تكلم موجها حديثه إلى صاحب المكأن وحده متجاهلا بصورة كاملة سائر الحاضرين.

ماذا تقول إذن فى الأمريكيين " بتوعك "؟

لم يدرك صاحب المكأن الذى استيقظ إلى حد ما من ذهوله ما الذى تشير إليه عبارة الحارس. راح الحارس يقص مجموعة من الاخبار التى سمعها من الراديو قاطعا بأن الامريكيين هم الذين " يحركون القدر " فيما يرويه من أحداث. كان يتكلم بحماس شديد دون أن يتراجع عن رأيه.

إنهم يريدون أن يبيعوا كل شىء لناصر كى يتوددوا إليه.. هذا الكنيدى.. صديقك.. آه؟ أنظر أى أصدقاء لك.

كأن صاحب المكأن فيما يبدو معتأدا على مثل هذه المناقشات مع الحارس وكأن يبدو عييا ثقيل اللسأن ولذا كانت تظهر عليه دلائل الحيرة. حاول أن يلقى المسئولية فى تلك الأحداث على وزير الخارجية راسك غير أن محاولته أثارت حميه الحارس بصوره أكثر.

- راسك... تراسك ! إنك لا تعرف ماذا تقول.. إنه مجرد صفر. مجرد منفذ للأوامر.

كأن قد أتى على الخيار. رفع كاس الصودا وتناول جرعة كبيرة ثم واصل حديثه. سأشرح لك سياسه الأمريكيين.. وراح يتحدث فى هذا الموضوع فترة من الوقت وأجابه صاحب المكأن بما أجاب. ثم انتقل الاثنان بعد ذلك إلى الحديث عن محاولة جرت فى الليلة السابقة للسطو على محل للمجوهرات فى المدينة.

فى تلك اللحظات أصبح حديثهما هادئا يحمل رنه التاسى. وفى النهاية نظر الحارس فى ساعته وأفرغ ما تبقى فى الكاس فى حلقه دفعة واحدة ثم خرج من حيث أتى.

طيلة الوقت.. كان الحاضرون يتسمعون الحديث فيما عدا التاجر المسن الذى لم يتعطف على المتحدثين ولو حتى بنظرة وبقى جالسا كما كان وعيناه مغروستان فى الزجاجة الموضوعة أمامه وهو يغنى بنفس الصوت الخفيض. تجشأ وتناول قطعة من السكر. أستقرت عيناه على الفتى والفتاه الجالسين إلى المنضدة

المجاورة. بدا كما لو كان لم يلاحظ وجودهما من قبل. جعل يتأملها بعينيه الهادئتين المشحونتين بالكبرياء للحظة طويلة ثم لاح على محياه ما يشبه ظل ابتسامة. فتح علبته ثانية ونظر فيها بتدقيق.. اختار قطعة من السكر قدمها إلى افيجيل وقال:

خذى.. فهذا طيب.. ضد الزكام. واقى للحلق.. ضد كل شىء.

ابتسمت افيجيل ووضعت قطعة السكر فى فمها.. رد الرجل لها الابتسامة بمثلها وعندئذ سألته فى لطف أن يترجم لها معانى الكلمات اللى كان يتغنى بها. بدا أن طلبها قد بعث فيه إحساسا بالارتياح والرضا.

إنها أغنية اسبانيولية.. لادينوهى أغنية يغنيها الشباب. يقولون:

فى الساعة السادسة مساء سأذهب.. مع رفاقى.. "مع رفاقه".

وأمام شباكك سأقف.. "سيقف أمام شباك فتاته".

وسأعزف على الماندولين."سيعزف على الماندولين".

ارتسمت ابتسامة رقيقة على وجه الرجل المسن المتكبر ولزم الصمت بضع لحظات وكأنه غارق فى أفكار بعيدة ثم واصل شرحة للأغنية:

الآن يشرح الفتى لماذا يعزف.. ظلمونى ظلما فادحا.. " يعنى حساده".

أشاعوا أننى مت. راحوا يشعلون الشموع " يعنى شموع الذكرى لمن يموت غير أنه لم يكن قد مات".

وسلبونى الفتاة الحلوة " سلبوه.. سلبوا الفتى عندما كانت نائمه عنده".

"أى أنهم سرقوها دون أن يشعر.. هكذا فعلوا به ".

فى هذه اللحظة حركت افيجيل يدها وأمسكت بذراع افشالوم.. فنظر إليها مشتاقا لرؤية شحوب وجهها.

انظر إلى الخارج.. همست.

التفت تجاه الشارع غير أنه لم ير شيئا.

لقد كان نفس الرجل الشاب.. تمتمت.. لقد نظر إلينا.

- لماذا شحب وجهك. قال افشالوم.

- وهل شحبت؟

- نعم. وكل هذا لأن شخصا نظر إليك لحظة؟

- كلا. وإنما لأنه ذو شفتين حمراوين.

- شفتين حمراوين؟

- نعم. استطعت الآن أن أرى وجهه. كانت شفتاه مكتسيتين بالحمرة.

- غريب.

- ربما طلاهما بأحمر الشفاه. لم تكونا هكذا من قبل

- ماذا تعنين بقولك.. من قبل؟

لست أدرى.. لقد رأيت وجهه من قبل لكن لا أذكر أين ومتى ربما.. ربما منذ بضعة أيام.

نظر إليها افشالوم متفكرا. خرج صاحب المحل من خلف منضدة البيع، وراح يدور على الجالسين. دفعوا له ونهضوا من أماكنهم وبينما هم فى طريقهم للخروج بدا يضع الكراسى مقلوبه على المناضد.

فى البداية خرج الموظفأن وزوجتاهما وبعدهم التاجر المسن وفى النهاية خرج افشالوم وافيجيل.

أنبسط الميدأن أمامهما مهجورا خاليا. حتى الغريب صاحب الشفتين المطليتين بالحمرة لم يظهر فى أى من أركان الميدان. لا هو ولا غيره.

سارا على مهل تجاه الشرق. وعندما وصلا إلى حى " نحلت شمعاه" دخلا إلى عطفة مظلمة. كانت العطفة ضيقة وطويله كالممر. ظلت افيجيل مضطربة لفترة، ولكن عندما بدا افشالوم يضاحكها تبدد ضيقها دفعة واحدة.

كان افشالوم يسائلها مضاحكا عما اذا كان لذلك الشخص الغريب ذيل وقرنان بالإضافة إلى شفتيه المحمرتين وربما أنف صناعية كذلك.

كان السكون العميق الذى يلفهما من كل اتجاه يسدل عليهما ستارا من السحر الغريب. كان يغشاهما نوع من الجزل المتزايد. نظرت افيجيل إلى افشالوم، وطلبت إليه أن يخبرها ما إذا كان الوقت غير متأخر. ثم بينت له أنها لا تنوى على الإطلاق العودة إلى البيت لكنها تريد فحسب أن تعرف الساعة.

قال افشالوم.. الساعة طيبة وموفقة.

- كلا.. قل لى الحقيقة.

نظر فى راحة يده فلم تكن لديه ساعه ثم قال.. الواحدة بعد منتصف الليل.

- الواحدة بعد منتصف الليل.. قالت فى فرح.. إن هذا ما كنت اعتقده بالضبط نظرت فى ساعتها على ضوء النجوم الباهت ثم قالت:

- نعم الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. كيف عرفت؟

- من راحة يدى.

- هل تعلم أنك إنسان مضحك؟

- نعم.

لكن موافقته لا ترضيها.. فتقول.. كلا إذا كنت إنسانا مضحكا فإن هذا علامة على أنك إنسان غير مسئول. وما دام الأمر كذلك أعد إلى نعلى. فمن المحقق أنك ستضيعهما.

فى هذه اللحظه توقفت فى منتصف العطفة المظلمة الغربية، وبدأت تضحك.. تماما كالأطفال. وفى النهاية يقول افشالوم إنها إذا لم تتوقف عن الضحك كمن " قرصته ذبابة مجنونة " فإنه يمضى ويدعها وحدها فى الظلام.

- كلا. إنك لن تتركنى.

- سأتركك.

- كلا لن تتركنى.. قالت وهى تضع ذراعها فى ذراعه.

- حسنا. إذن تمسكيننى بالقوة.

- ليس هذا من الحكمة. عندما نقابل شرطيا سأقول له فيخلصنى.

- ربما لا يعرف الشرطى العبرية.

- إذن أخاطبه بالإشارة.

- اعمل لى إشارة صغيره إذن.

باعدا السير وخرجا من العطفة ووصلا إلى حديقة المدينة. على يسارهما وعلى مساحة معينة كانت تمتد جبانة المسلمين. كانت تربض هنا وهناك بضع شجيرات قائمة وتنتصب مجموعة من الأشجار قصيرة القامة وفى الوسط يمتد طريق واسع مترب.

قال افشالوم.. نعم أننى أريد أن أعمل لك شيئا. ليس إشارة. إن الإشارة لا تساوى شيئا. كنت أود أن أقدم لك هدية. بعد إطراقة لحظة سألها:

- هل أنت فى حاجة إلى إلصاق شىء؟

- إلصاق شىء؟

- نعم إن لدى لاصق فى الحجرة. اشتريته بسعر رخيص.. أنبوبة.. يلصق كل شىء.. الخشب.. الجلد.. الزجاج.. ربما انكسرت لك مرآة صغيرة كان تقريبا يحفزها على القبول.

غير أنه لم تكن بها حاجة لإلصاق أى شىء فراحت تضحك وضحكاتها ترن. وتتردد فى أنحاء الحديقة المهجورة.

- كلا.. لم تكن هذه فكرة موفقة.. لكننى أستطيع أن أعمل لك شيئا آخر.

- ماذا؟

ـ أركبك على ظهرى من هنا وحتى نهاية الحديقة.

ـ لكنى لا أريد الركوب.

ـ خير لك أن تفعلى.

ـ لا.

يمضيان فى السير..

ـ لو كنت تستطيع الطيران لوافقت.

ـ إلى أين تريدين الطيران؟

ـ أريد الطيران إلى إسبانيا .. إلى أشبيليه.

ألم أقل لك مرة أنه يمكن أن يقبض عليك هناك.

ـ إذن نطير إلى لندن.

ـ ما الذى تريدين رؤيته فى لندن؟

أريد رؤية معرض تلك المرآة "اسمها إيه دى". يقولون إن هناك تماثيل من الشمع لكل أنواع الناس.

جعل افشالوم يفكر قليلا ثم قال نعم ولكننى لا أستطيع الطيران.

ـ ليس مهما. قالت وهى تلمس ذراعه فى رفق. لا تحزن. خير لنا أن نسير فحسب. هكذا مجرد السير فى الليل. فلنسر أكثر.

ـ إلى أين؟

ـ حتى نصل إلى أى مكأن؟

بعد إطراقة قصيرة قالت.. ما اسم هذا المكأن؟

ـ حديقة الاستقلال.

إذن نواصل السير حتى نصل إلى أى مكان.

لكنهما بعد أن قطعا مسافة من الطريق وعلى مقربة من باب الحديقة تراجعت عن رأيها وقالت:

- يوجد هنا عشب.. تعال نجلس. وأضافت فى لهجة تفسيرية.. من المحقق أن الأعشاب حزينة الآن فى الليل. ستسعد إذا بقينا هنا قليلا.

جلسا على العشب إلى جوار الطريق فى صمت.. من مكان ما كان ينبعث صفير صرصار ومضى بعض الوقت على هذا الحال.

قالت.. قص علىَّ قصة.

- لست أعرف قصصا.

- إنك تعرف وأنا أحب القصص.

فكر افشالوم بضع لحظات ثم بدأ يقص:

- فى ذات مرة كان هناك ثلاثة دببة. الدب الأكبر والدب الأصغر والدب الأوسط.

كلا.. إنك تتحدث كما لوكنت طفلا بسيطا.

وساد الصمت.

تسطحت افيجيل على ظهرها وهى تقول رأيت أمس فى الحلم طبقا طائرا كبيرًا كله من الفضة. كان اليوم جميلا مشرقا واقترب الطبق وهبط تجاهى وعندما وصل إلى الأرض انفتحت به طاقة ورأيت رجلا خلف المنصة وعلى المنصه أطباق مليئة بالفطائر والكمثرى وفواكه متنوعة. أخذت بعضا من كل صنف وعلى الفور عاد الطبق الطائر فحلق وابتعد حتى بدا كنجمة صغيرة لامعة.

أغلقت افيجيل عينيها وبدت وكأنها قد نامت. لكنها بعد مرور بعض الوقت سألت فى تمتمة:

- كم تظن الساعة الآن؟

- لست أعلم.. انظرى فى ساعتك.

- لكننى لا أريد أن أفتح عيني.

- لماذا؟

- لأننى أرى وجهك هكذا.. أرى وجهك طيلة الوقت.

مدت له يدها.. قرب يدها من وجهه مدققا النظر فى عقارب الساعة. تصل إلى أذنيه دقات الساعة، يدها مسترخية فى يده والساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.

فجأة أفاقت افيجيل وهبت واقفة. جعلت تصيخ السمع. وراحت تنظر فيما حولها دون أن ترى شيئا عدا بضع أشجار هنا وهناك، وافشالوم ينظر إليها مشدوها.

قالت فى صوت خافت.. أشعر أنه هنا.

من؟ إنك مريضة بالأوهام يا افيجيل.

كلا إنه يختبئ.. ربما خلف إحدى الأشجار.

سأبحث عنه.. قال افشالوم وهو ينهض من مكانه.

كلا. دعه. فلنذهب نحن من هنا.

ماذا. ألست خائفة؟

بلى.. ومع هذا فلنذهب.

إلى أين؟

نذهب بعيدا.

سارا على الطريق المتجه جنوبا. لم يلتقيا بأى شخص طيلة سيرهما. كل فترة من الزمن كانت تمر إلى جوارهما سيارة. فى البداية كان سيرهما فى شوارع متسعة وطويلة وبعد ذلك دخلا إلى حى مشتجر بالحوارى الضيقة.

وبعد مرور ساعة كانا قد تجاوز الأحياء السكنية ووصلا إلى منطقة الخلاء. على أحد جانبى الطريق كانت تسمعه مجموعة من أشجار السرو ومن خلفها بستان وعلى الجانب الآخر كان ينبسط حقل مقفر إلى جوار الطريق كانت تمتد قناه رى مليئة بالأشواك، وشجيرات السنط. انحنى افشالوم على قدمى افيجيل وألبسها نعليها. ثم أمسك بيدها ووثبا معا فوق القناة، وراحا يخطوان على أرض الحقل. من اتجاهات مختلفة ومن جوف الظلام كانت تتردد أصوات الصراصير والجنادب فى نغمه رتيبة عنيدة.

أخذ سطح الأرض الخالى من أى أثر لطريق أو مدق يرتفع بصورة تدريجية.

وصلا فى صعودهما إلى الهضبة وتجاوزا انبساطها، ثم بدءا فى الهبوط. بالتدريج كان المنحدر يزداد وعورة وحدة فى انحداره. كان المنحدر يهبط إلى خندق ضيق مزروع بالصخور والشجيرات. خندق ظل يطول ويمتد أمامهما وكأنه سرداب. لم يكن هناك طريق آخر يقود إلى أعلى.

ولأنهما لم يكونا يريدأن العودة من حيث أتيا فقد كأنا مضطرين إلى الهبوط فى الخندق. مضيا على هذه الصوره زمنا طويلا بين اسوار الصخور المنتصبة عن يمين وعن يسار. كانت الأرض تحت أقدامهما مفروشة بالجذور المتشابكة وأمامهما كانت مجموعة مشتجرة من الأغصان النباتية من بين الصخور تسد الطريق وتغلفه. من فوقهما كانت تظهر بعض النجوم المضيئة بينما غمر الظلام ما حولهما. فجاة انبعث من داخل الأغصان طائر مفزوع ثم ما لبث أن اختفى.

- هل ترين طريقك يا افيجيل؟

- نعم يا افشالوم.

جعلا يشقان طريقهما، يتعلق بهما غصن تارة وتعترضهما صخرة تارة أخرى.

- إلى أين نذهب يا افشالوم؟

- إلى الأمام

- حسنا يا افشالوم.

الآن بدأ الممر يتسع ويأخذ فى الصعود، أصبحت الأغصان أقل تشابكا وبدت السماء فوقهما أكثر اتساعا. بات السير أكثر سهولة.

بعد فترة من الوقت خرجا من الممر.

تسلقا سلسلة الصخور واعتليا بضع درجات حجريه فبلغا قمه الهضبة.

سارا فترة طويلة فى صمت خلال المنطقة المنبسطة المليئة بالأحجار الصغيرة والشجيرات الشوكية. من حولهما كانت الجبال شامخة كالظلال الثقيلة.. منها البيضاوى ومنها المستدير. من داخل الجبال كان ينبعث عواء ابن أوى وكأنه صوت ضحك كئيب، غريب، مجنون. لكنه كان ضعيفا آتيا من بعيد وسرعان ما أنقطع. بعد قليل من السير لاحت لهما فى جوف الليل أضواء باهتة قليلة؟

- هل هذه هى القدس يا افشالوم؟

- كلا.. القدس خلفنا إننا نتجه جنوبا.

هل تميز الاتجاهات بالنجوم؟

- نعم. أنظرى.. هذه نجمة الشمال والنجم القطبى خلفنا.

من فوقهما ومن قبه السماء كانت النجوم تضئ فى هدوء وشحوب.

كانت كل نجمه عالما بذاتها.. عالما بعيدا معزولا غامضا.

- إذن فما هذه الاضواء؟

ربما كانت بيت لحم.. أنها تبدو كالعروس المحلقة على سطح الأرض متعالية إلى السماء..

- لماذا كالعروس؟

- لأنها تتحلى باللالئ..

عندما وصلا إلى ركن الهضبة شعرا بالتعب فتوقفا. كان يحيط بهما بستان صغير مهجور به بضع أشجار من التين والزيتون بضع كرمات متناثرة.

- نحن الآن وحدنا .. قال افشالوم.

- هل يمكن أن نكون قد عبرنا الحدود؟

- يمكن.

- إذا وقعنا فى يد العرب فهل يقتلوننا؟

- ربما يقتلوننا.

- نعم. ومع ذلك فإن هذا لا يهمنى الليلة. أننى لم أكن بمثل هذه السعادة قط.

فى تلك اللحظة ظهرت جماعة من الكراكى أتية من الجنوب ومصوبة إلى الشمال. كانت أكبر قليلا من تلك التى ظهرت لهما من قبل. كانت تضم حوالى اثنى عشر طائراً.

كانت الجماعة جزءا من القافلة المرتحلة إلى بلاد الشمال وقد تفرقت إلى جماعات عديدة صغيره تطير على مسافات متباعدة دون أن تخشى أن تضل واحدة منها الطريق. ظلت الكراكى تحلق فى سكون، حتى اختفت فى جوف الظلام.

انقضى بعض الوقت. زحف شىء ما بين الشجيرات ربما كان حرباء.. وقف افشالوم وأفيجيل متلاصقين وهما ينظران فى صمت إلى أعماق الليلة الساحرة التى تكتنفهما، كانا يصيخان السمع للهدوء.

بدا لبضع لحظات أن كل ما يدور ليس سوى حلم.. حلم عميق. لمس أفشالوم بلا وعى ذراع افيجيل بإصبعه كما لو كان يريد أن يحس بأنها حقيقة إلى جواره.

ابتسمت هى. علها فهمت.

هل أردت أن ترانى؟ سألت فى صوت خفيض:

متى؟

قبل حضورك، أنتظرت طوال الليل طلوع الفجر لأننى كنت أريد رؤيتك.

لكن لماذا كنت تعتقد أننى سآتى مع طلوع الفجر.

لم أكن أعتقد أنك ستأتين.

أنتظرت طلوع الفجر لأننى لم أكن أستطيع رؤيتك إلا عند طلوعه.

وعندما طلع الفجر ذهبت إلى حديقة البلدية...

نعم ولم أكن أنا هناك..

نعم عندما وصلت إلى الحديقة بدا كل شيء يتألق بالنور فى بطء. عندئذ ظهرت الزهور التى فى الحديقة وهو ما كنت أنتظره طيلة الليلة. كانت هناك ورود صفراء وحمراء وزرقاء ووردية.. غير أن نظرى تركز على وردة كبيرة بيضاء كالثلج كان فى بياضها الرائع بريق لا أستطيع وصفه بالكلمات ولا يمكن فهمه.. بريق كأنه علامة عميقة سرية وثنية.. علامة لاحظتها مرة فى إحدى لوحات ليوناردو.. لوحة العذراء مع وليدها وأنا المقدسة. فى تلك المرة لم تجذبنى وتشد أنتباهى وأنا أطل فى اللوحة.. هيئة الوجوه المبتسمة المتألقة ولا حتى المنظر الطبيعى الخيالى المحيط بهما بل شدنى ذ ولعل هذا غريب ـ فحسب منظر قدم العذراء.. البيضاء.. العارية...

كأن إحساسى وأنا أقف فى الحديقة فى تلك اللحظات.. لحظات التنوير.. لحظات السكون.. لحظات تجدد الكون هو نفس إحساسى بينما كنت أرقب قدم العذراء.. دققت النظر فى تلك الوردة البيضاء ولمستها إصبعى فرأيت...

ماذا رأيت؟

رأيتك يا أفيجيل.. رأيتك أنت.

كلا. لا تقل هذا يا أفشالوم.

همست فى صوت مختنق. مدت يدها إلى وجهه وكأنها تريد أن تسكته لكنها دون وعى راحت تداعب شعره .. تلمسه ثم تتراجع عنه. كانت يدها كالضالة لا تعرف ماذا تفعل. اكتنفها الصمت للحظات طويلة بعدها قالت فى همس..

نعم.. قل لى ماذا رأيت.

رأيتك يا أفيجيل.. كنت أنظر إلى داخل الوردة وكأننى أطل داخل عينيك داخل نفسك. إنك جميله يا أفيجيل.. جميلة ونقية كالوردة.. كالفجر الذى أضاءها.. كالماء الذى سقاها..

لاحت الدموع فى عينيها. أمسك وجهها بين يديه فأحس بمدى سخونة وجنتيها. أحس برائحة جلدها وشعرها المسكرة. كانت شفتاها ترتعشان وعيناها المشرقتان تطفحان بتعبير من الألم والرضا فى نفس الوقت. كانت بكل ما فيها فى تلك اللحظات جزءا من حلم.

مدت ذراعيها فطوقت بها جسده وبعينين مغمضتين وفى بطء وعذوبة وانقياد احتضنته. وقفا هكذا برهة طويلة. بعد ذلك فتحت عينيها وعندما نظرت فى عينيه تمتمت إن روحى تحتضن جسدك الآن يا أفشالوم.

وفجأة بدأت ترتعش. أراد أن يطمئنها فضمها إليه وجعل يداعب شعرها وكتفيها العاريتين فى رقة.

أحس بأنفاسها الحارة على وجهه وعنقه وسمعها تتمتم بكلمات مختلفة... كلمات غريبة ربما قالتها فى أوقات أخرى وطفت الآن على سطح ذاكرتها المضطربة.

عدوت طول الطريق.. طول الطريق إليك.. فى الشوارع.. لا تدعنى أذهب عنك ثانية.. لا تدعنى أذهب مطلقا.. سأكون لك.. سأكون معك دائمًا.. إننى أحبك.. إنك بداخلى.. إنك تتدفق داخلى كالنهر.. وتشتعل.. تشتعل داخلى كالعشب سأحضر لك زهورا.. سأحضر لك زهورا حمراء.. زهورا زرقاء وصفراء سأحضر لك ثمرات.. حيثما تذهب سأكون.. دائما سأتى إليك ودائما ستجدنى.. أن نزلت إلى الماء سأكون فى الماء.. إن قطفت ورقة شجر سأكون فى ورقة الشجر.. إن أكلت خبزا سأكون فى الخبز.. أن فتحت الشباك فى الليل سأكون فى الظلام..

تحول حديثها إلى همهمة غير مسموعة ثم انتهى إلى الصمت. ولم يقل هو شيئا فقد أدرك أنه لم يعد يمكن الحديث بالكلمات. فى بطء خفت الرعشة التى تولتها. كان وجهها يواجهه بإشعاعات من نشوه العرفان.

خلعت قميصها وسوتيانها فى بطء وألقتهما على الأرض. بدت لأفشالوم فى وقفتها عارية الفخذين والصدر مديدة القامة قوية لذيذة وكأنها تنطوى على شىء ما من صورة إلهة وثنية.

وكما لو كان فى حلم بسط يده يريد أن يلمسها غير أنها برقة لا توصف أمسكت بيده وبعد أن طبعت عليها قبلة تركتها لتهبط.

ظل أفشالوم واقفا فى سكون. جثت تحت قدميه.. أمسكت يديه بيديها وألصقت شفتيها بهما. راحت تلثمهما فى لهفة وصمت.. قبلات طويلة متكررة.

من حولهما كان كل شىء ملفوفا فى الظلام.. كان جسدها العارى.. جسدها المشع الوضاء هو الشىء الوحيد الساطع فى جوف الظلام.

التصقت شفتاها الملتهبتان براحة يديه للحظة. كانت كأنها تنطوى على بعض من جوهر اللانهائية. جذبته فى ترفق إليها فركع إلى جانبها واحتواها بين ذراعيه. ضمها إلى قلبه. قبّل ما بين عينيها وفمها ورقبتها وقدميها الوثنيتين. بعد ذلك تمددا على الأرض بين الأعشاب الذابلة وشجيرات السنط.

من فوقهما وفى كبد السماء كانت تمر فى تلك اللحظات جماعات جديدة من الكراكى. أعناقها منحنية ورءوسها مصوبه للأمام تفرد أجنحتها السوداء. بينما سيقانها ملتصقة وممدودة للخلف. كانت تبحر فى بحر الظلام السماوى كظل قامة كبيرة داخل الظلمة الشاحبة.

مرت أسراب وأسراب من الكراكى متتابعة متلاحقة.

كانت هذه الأسراب فيما يبدو قوام الجماعة المهاجرة الرئيس. أما ما كان قد ظهر منها قبل ذلك فلم يكن سوى طلائع للقوة الأساسية. على فترات متباعدة كان يتردد صوت أشبه بنداء قصير.

وفيما عدا هذا كان السكون مخيما، من أسراب الكراكى ما كان صغيرا يضم خمسة او ستة طيور، ومنها ما كان يضم عشرين أو أكثر.. غير أنهم جميعا كانوا يتحركون على شكل رأس سهم صوب هدف لا يحيدون عنه.

مرت رءوس السهام الأولى على ارتفاع عال .. ابتعدت واختفت فى الظلام وجاءت اخرى وابتعدت واختفت، ومرة ثانية وصلت رءوس سهام جديدة تسبح على أمواج الصمت والظلام تشق طريقها إلى الأمام وكأنها رسل أو مبشرون ترف فوق الهضاب والوديان.. فوق الحقول والأشجار.. فوق الأرض الغارقة فى السبات إلى بعيد تجاه الشمال.

فجأة اعتدلت أفيجيل كالمذعورة. بين الأشجار وعلى مسافة ما ظهر شخص، رجل كأنه شبح الرعب وقد تولد من العدم. لم يكن وجهه ظاهرا فى الظلام، إلا أن أفيجيل عرفته على الفور. كان ذلك هو الشاب ذا الشفتين الممسوحتين بالحمرة. كيف وصل إلى هنا؟ هل يمكن أن يكون قد تعقبها فى تكتم متخفيا على طول الطريق؟ والأمر الغريب أنه لم يقف ساكنا، بل كان يتحرك وكأن به رعشة أو كأنه يتقيأ.

ومع ذلك فإن صوتا لم يصدر عنه.

تصور افشالوم للحظة أن ما يراه ليس سوى خداع بصر.. غير أنه أدرك أن الأمر غير ذلك. كان شخص الرجل واضحا جليا للعين وعلى بعد حوالى عشرين خطوة منهما. نهض أفشالوم على مهل وانتصب على قدميه.

لا تقترب منه. همست أفيجيل.

عله مريض؟ تساءل افشالوم.

وفى تردد اتجه نحوه، وقبل أن تستطيع أفيجيل - سارعت بارتداء قميصها - أن تستوقفه كان قد ابتعد عنها بضع خطوات. رأته وهو يسير فى الظلام إلى ما بين الأشجار مقتربا من الشخص الذى أصبح يقف وكأنه قد سمر فى مكانه دون حركة أو صوت.

لم يستغرق ما حدث هناك فى الظلام بين الأشجار إلا لحظة غاية فى القصر ولم يكن واضحا لأفيجيل من المكان الذى تجلس فيه .. ففى لمح البصر بدا الشخصان وكأنهما يمتزجان فى جسد واحد غير واضح المعالم .. تحرك شىء ما ثم أنبعث صوت غامض كالفحيح وتلته اهة خاطفة. انسل أحد شطرى الجسد بين الأشجار واختفى كأنه لم يكن. أما الثانى فقد انحنى فجأة وركع على الأرض.. قفزت أفيجيل على قدمها وقلبها يدق فى وحشيه وهرولت إلى المكان وعندما أنحنت على الأرض رأت افشالوم يجلس منكمشا دون حراك. يداه متدليتين ورأسه ملقى على صدره. كم كانت جلسته هذه غريبة.

نادته أفيجيل فلم يجب ..

تحرك شىء ما بين الأشجار وانبعث من نفس المكان صوت كأنه فحيح صادر إما عن حنجرة كائن بشرى، أو عن حنجرة حرباء.. ركعت أفيجيل على ركبتها ووضعت يدها على كتف أفشالوم. مست أطراف أصابعها شيئا لزجا. كان ذلك دما. خيط رقيق من الدم ينشع ويسيل من تحت عظمة الترقوة على صدره وذراعه.

لم يكن ذلك إلا أن السكين قد أصابت أحد الشرايين.. سرت الرعشة فى جسد أفيجيل كله وتولاها الفزع. ظل الدم يفيض ليس فى غزارة ولكن دون توقف. ما الذى كان عليها أن تفعله؟

ضغطت بإصبعها على الجرح لتقلل من فيض الدماء فسال الدم على أصابعها.. على راحة يدها.

كانت تعلم أن ذلك ليس إسعافا للجريح.

خلعت عنه قميصه مزقته خلقا وحاولت أن تضمد صدره فجأة سرت رعده شديدة فى جسد أفشالوم، وفى بطء وجهد غاية فى العسر مد يده اليسرى فامسك بذراع أخته وبدأ ينهض من مكانه. فى النهايه نهض ووقف وتقدم خطوتين أو ثلاث للأمام فى تراخ.

توقف ودفعة واحدة وبلا صوت مال بجسده ليسقط بين ذراعى أخته. أمسكت به بكل قواها وأرقدته فى ترفق على الأرض. تمدد على ظهره يتنفس فى بطء دون أن يتأوه، أو يصدر صوتا. كان يرقد وعيناه مفتوحتين، ينظر إليها فى صمت.

ما الذى كان عليها أن تفعله؟ نظرت إليه ونظرت فيما حولها متحيرة. من حولها كانت تمتد رواب وهضاب.. حقول وصخور وأدغال والصمت والظلام مخيمان. بينما هى فى حيرتها إذا بنباح كلب ينبعث من مكان ما غير قريب وغير بعيد؟ أفليس هذا دليلا على وجود مستوطنة.. على وجود أناس فى مكان قريب؟ عليها أن تصل إليهم وتنشد المساعدة وتحضرهم إلى هنا، أو على الأقل يمكنها أن تحضر بعض الماء لتغسل به الجرح وترطب وجهه وتسقيه.. فلا شك أنه فى غاية الظمأ.

ربما كانت هناك على مقربة من البستان بئر مهملة. ربما كانت هناك بعض المساكن خلف هذه الهضاب. لكنه كان من العسير رؤية شىء أو معرفه شىء. تكرر النباح، اتجهت افيجيل إلى الناحية التى صدر منها الصوت. مرت على سور من الحجارة ووصلت إلى منطقة من الصخور مليئة بالأحجار الصغيره التى بدت رمادية على ضوء النجوم الخافت، تعثرت قدماها فى حجر فانقطع سير حذائها. ألقت به وراحت تعدو حافيه إلى بعيد.. لكن ما هذا.. من أين انبعث الصوت؟

فلقد تردد النباح ثانية ولكن من اتجاه آخر هذه المرة. توقفت افيجيل فى مكانها تتسمع فى تردد. بدا لها أن الصوت قد جاء من الجانب الآخر.. من ناحية تل قاتم مغطى بالشجيرات.

أتخدعها أذناها؟ أو ربما كانت هذه أصداء تتردد وتأتى من اتجاهات مختلفة.

دارت على عقبيها وعادت فمرت بالبستان. مرت أمام افشالوم الذى كان يرقد ساكنا وجرت صوب التل.

أصابتها الشجيرات الشوكية بجروح فى ساقيها غير أنها لم تشعر بذلك. لم يكن بد من الاصطدام بالأشواك وهى تقفز هنا وهناك.. لكن.. إلى أين يؤدى هذا الطريق اللاطريق؟

لم يكن يمكن تمييز شيء على بعد عشر خطوات. ولم يكن أمامها سوى مجموعة من الأشجار القصيرة القاتمة تعلوها شجرة زيتون وحيدة منفلقة على هيئة قرنين تتدلى منهما الخصلات. ظلت تثب مواصلة سيرها.

فلم يعد نباح الكلب يتردد لم تبق أمامها اية علامة تسير على هداها أليست بمسيرتها هذا تضل فى هذا التيه من الأشجار والظلام؟.. كان عليها أن تخرج من هذا المكان وأن تصل إلى أى مكان مأهول. ولكن اليست هى فى ابتعاد عن المكان الماهول بدلاً من أن تقترب منه؟.. لم تكن فى حقيقة الأمر قد ابتعدت عن البستان إلا بحوالى مائة خطوة أو أكثر بقليل.. إلا أن الظلمة طمست تفكيرها.. اختلفت الأشكال فى نظرها واضطربت المقاييس وبدا لها بعيدا ما كان قريبا. وصلت الآن تقريبا إلى قمه التل.. يمكنها الآن رؤية ما فى الجانب الآخر من أعلى. مدت يدها لتتعلق بأحد الأغصان الجرداء فى شجرة الزيتون وإذا بنظرها يقع فجاة على الشاب.

كان واقفًا فى مواجهتها إلى جوار الشجرة تماما وكأن هناك شيء لا يصدق فى مرأى وجهه الذى كان غاية فى القرب وظاهرا فى وضوح تام.

كانت الحمرة قد اختفت من على شفتيه وابتسامة تفيض عليهما.. ابتسامة خجل.. ابتسامة الاعتذار كان يبدو معها على وشك أن يتفوه بكلمات حيية.. كان الموقف مرعبا وانقضت دقيقه تقريبا والاثنان يقفأن فى تحجر.. وعندئذ وقع الأمر الذى لا يصدق فلقد راحت الابتسامة تتسع على وجه الفتى أكثر وأكثر لدرجة الضحك لكن دون صوت. ضحك عقيم مصطنع بصعوبة، انفرجت شفتاه وتمتم: اغفرى لى.. ربما.. خطا فى تردد خطوه صغيرة للأمام.. اغفرى لى.. عاد يكرر.. ربما تريدين.. أن تجلسى.. على.. معطفى؟

وفى هذه اللحظة اهتزت كمن يفيق من حلم. تراجعت خطوة أو خطوتين وبدات تعدو على المنحدر لم يتعقبها الرجل، بدا فقط وكأنه يتمتم ببضع كلمات. وراحت هى تعدو تجاه البستان الذى كان يبدو وكأنه الشيء الوحيد الواضح البارز فى الطبيعة المحيطة مطموسة ومحتشدة الملامح.

عندما وصلت وجدت افشالوم راقدا فى مكأنه وعيناه مغمضتتن كأنه غارق فى النوم. انحنت عليه ونادته ففتح عينيه فى بطء ناظرا إليها. كانت تعلم جيدا أنه لا ينبغى لها أن تدعه ينام فربما لا يصحو بعد ذلك إلى الأبد. عندما ينفلق الصباح سيتغير كل شىء.. ستظهر عن قرب أو عن بعد أي بيوت أو طريق أو مدقات. وحتى ذلك الوقت لا ينبغى له أن ينام. انحنت عليه وبدأت تداعب شعره وجبهته بأصابعها .كأن يبدو فى تلك اللحظات غايه فى البعد. وربما كان يستحيل الوصول إليه بعد ذلك. لم تكن تحس بأنفاسه تقريبا.

كانت يداه مقرورتين. وحاولت افيجيل أن تدفئهما بالتدليك. كانت تتحدث إليه طيلة الوقت، تهمس فى أذنه؟

لا تنم يا افشالوم.. لا تنم الآن.. بعد قليل يطلع الفجر يا عزيزى وتشرق الشمس.. الشمس يا افشالوم يا حبيبى.. كلا لا تقفل عينيك.. انظر يا افشالوم.. هل ترانى؟.. إننى أفيجيل.. أنظر إلى أعلى أن السماء مليئة بالنجوم. إنها تنظر إليك يا افشالوم.. إنها لا تريدك أن تنام.. كواكب كثيرة كما حكيت لى.. حمراء وصفراء وزقاء.. إننى اذكر كل شىء سواء عن الكواكب أو عن الزهور.. لا تنم يا افشالوم.. فى الصباح أحضر لك زهورا.. هل تذكر أنك قلت لى إننى زهرة بيضاء؟ كنت أريد أن أبكى لكننى لست بكاءة.. سأحضر لك زهورا فى الصباح.. سأحضر لك زهورا. سأحضر لك شيكولاتة ومياها وعصير ليمون.. أتريد عصير ليمون يا افشالوم؟ سأحضر لك كل ما تريد.. أن شفتيك يابستان الآن.. ها أنا ارطبهما.. الآن أرطبهما بلسانى.. ها أنا قد لعقتهما.. أليس هذا مضحكا حقا؟ أننى كالكلبة.. إننى أعرف أنك تريد أن تضحك كما ضحكت عندما قذفتك بوساده.. هل تذكر تلك المشاجرة التى وقعت بيننا فى حجرتك وكيف وقعت؟ وكيف تظاهرت أمامى بأنك قد هزمت؟ أننى أعلم أنك تظاهرت فحسب كى تضحكنى.. لأنك تحب أن تضحكنى يا افشالوم. إنك مثل أبى. وأنا طفلك العبيط.

لذا لا تنم الآن يا افشالوم.. لا تنم.. بعد قليل يطلع الفجر.. سيأتى أناس.. سيعالجونك. سيضعون لك اليود والضمادات فتصبح معافى.. وسأشترى لك أنا

كل أنواع الأشياء كل ما تريد.. علك تريد أن أغنى لك أيه أغنية يا افشالوم؟ سأغنى لك العشب الأحمر. العشب الأحمر. العشب الأحمر يشتعل فى بطء - النهر الاخضر - كلا ليست هذه أغنية فليس لها لحن. ساغنى لك أغنية أخرى عن العشب. أننى أعلم أنك تحب الخضرة يا افشالوم.. عشب أخضر.. بحر أخضر.. نهر أخضر أحقًا تسمعنى يا أفشالوم؟ سأغنى لك.. ها هنا وسادة العشب حريرية.. ها هنا ينبت عشب.. ها هنا ينبت عشب.. ها هنا وساده عشب بهذا القدر حريرية. ها هنا ينبت عشب رقيق وعال.. أحقًا تسمعنى يا افشالوم لا تظن أننى أبكى فهو الندى يتساقط.. ندى السحر.. ندى غزير يتساقط على عينى ألست تعلم أننى لست بكاءة.. فقط لا تنم يا افشالوم.. لا بد أن تظل يقظًا. بعد قليل يبزغ الفجر. وبعد ذلك تشرق الشمس. ها هو الوقت يمضى.. أن الساعة الآن - سأنظر فورا فى ساعتى. أننى لا أستطيع أن أرى الآن بسبب الندى.. لكننى سأرى فورا. لن أسالك كم الساعة.

فليست لديك ساعة.. وفوق هذا فأنت تهذر دائماً. ستجيبنى أن الساعة طيبة وموفقة. ها أنا الآن أستطيع.. أحقا تريد أن تعرف الساعة بدقة يا أفشالوم؟ ساقول لك بدقة متناهية الساعة .. الساعة.. كلا لم أعد أستطيع ثانية.. سأحاول بعد قليل. الآن أدفئك قليلا يا افشالوم أن يديك باردتان يا افشالوم ذلك لأن الهواء يصبح باردا ورطبا فى السحر.. هذا طبيعى. ولكن بعد قليل عندما تطلع الشمس ستشعر بالدفء.. أن الشمس ستدفئنا جميعا.. ستدفئ الأرض والأعشاب والزهور. كلنا سنصحو وسنقف ونلبس ثيابا ملونة. فقط أنتظر قليلا. من العسير عليك أن تتنفس الآن أننى أسمع هذا لو استطعت أن أعطيك هوائى.. أن أعطيك كل شئ.. ألست أنت أنا يا افشالوم.. وألست أنا أنت وسأكون لك دائما وستكون لى. وسأتى إليك دائما وستجدنى..

فقط لا تقفل عينيك من فضلك يا افشالوم. ألست ولدا طيبا. ولدا مجتهدا. أنت تعرف كيف لا تقفل العينين. حسنا إذا كنت حقا مضطرا فلا بأس.. إننى أعلم أن هذا سيكون لدقيقة فقط. لكى تستريح قليلاً. رب أننى تعبة للغاية. إننى

الأخرى أريد أن أغلق عينى لدقيقة. يبدو لى أننى نمت للحظة. ما كان ينبغى أن أفعل ذلك. ألا ينبغى على أن أرعاك يا ولدى. أى نوع من الأمهات أنا فأنام. يبدو لى أننى قد حلمت جاء بعض العازفين من البحر. واحد معه دف والثانى معه ناى والثالث.. رقص.. رقص الثالث.. ما أجمل الألحان والأردية الملونة كالأشجار.. كالأزهار.. إنك الآن صامت.. صامت هكذا.. إنك.. ولكنك ما عدت ترتعش.. الآن يطلع الفجر.. العصافير تغرد.. الندى يتساقط.

عيناى ثقيلتان للغاية.. مقفولتان.. أننى أطفو. سأرقد قليلا بجانبك يا افشالوم. هل توافق حقا؟ هكذا رأسى على صدرك.. إننى أطفو.. أطفو.

أنا مهاجر* للكاتب ى. ابى شبى ماءور

كانوا ثلاثة صبية.. ثلاثة أعضاء فى الكوموزمول.. ثلاثة شبان لهم أحلام.. كان أولهم كالأولاد فى هيئته مع أنه أكبرهم. ومع أن شعره كان مجزورا فقد كان يسهل على من يراه معرفة أنه أشقر. كانت عيناه زرقاوين. لم تكن نظارته تخفى لونهما.

على العكس كانت تكسبهما لمعأنا وتألقا. لكنها تظهر وجهه الممصوص أكثر نحافة. كانت عظام وجهة بارزة.. لم يكن يغطيها سوى طبقة رقيقة من الجلد المشدود.

غالبا ما كان وجهه يبدو جامدا دون اختلاجة أو ابتسامة. لكن عينيه كانتا تثريأن تعبيرات وجهه بزرقة السماء فيهما. عندما كان يغمض عينية.. كان وجهه يبدو ملفوفا فى ستار من الكد والإرهاق وكانت تكسو شفتيه علامات الهرم والوهن. لكنه إذا فتح عينية تدفق منها عالم وضاء مشحون بالحياة. عالم يجمع بين الطفولة البريئة والرجولة النابضة بالشجاعة.. تماما كأنه كتلة من المياه البلورية الزرقاء تتدفق من مرتفع هائل.. بارقة لامعة هادئة لكنها تحمل فى أعماقها المظلمة طاقة مروعة خفية تنقضى بفعلها فى عنف صاخب على صخور السفح.

كان يتجول بين السجناء كطفل وسط جماعة من المسنين. كأنوا جميعا يحبونه.. حتى اللصوص الذين قضوا حياتهم يمارسون السلب والنهب وخفضت الإحكام عليهم من الإعدام إلى السجن المؤبد.. كانوا يعاملونه فى ود وترفق ويحرصون على مد يد العون له.

"ساشا رقم ثلاثمائه وثلاثه وثلاثين" أو"ساشقا ترى ترويكى".

"ساشا ثلاث ثلاثات". هكذا كانوا ينادونه. أما اسم عائلته الحقيقى فلم يعرفه أحد ولم يكن أحد راغبا فى معرفته.

أما ثانيهما فاسمه إيليا. وكان دائما ملازما لساشا. كان الاثنان كالجسد وظله. كان إيليا شابا مديد القامه صلب العود.. سريعا خفيف الحركة كابن الثامنة عشرة.

كان - على عكس ساشا - عنيفا قويا ذا وجه مستطيل متجهم وعينين سوداوين.

كان يبدو عملاقا إلى جوار ساشا.. لكنه كان يطيعه كالطفل فى كل ما يقول له.

"العربة الكبيرة والبقرة الصغيرة".

هكذا كان يسميها السجناء من باب السخرية.

كانت ملابس السجن دائما مناسبة على قامة إيليا.. وكانت أرقام السجن واضحة على صوره.. وقبعته وسراويلة مهندمين. أما ملابس ساشا، فكانت دائما مهدلة واسعة وطويلة وكلن رقمه "ثلاث ثلاثات" مخبوءًا دائما فى ثنايا ردائه.

أما ثالث الصبية فكان نادرا ما يظهر فى صحبة الاثنين. كان يقضى معظم الوقت راقدا مريضا فى الكوخ الحقير تحت الأرض.. معزولا وحيدا.. بينما السجناء يعملون خارج السجن. ولكن عندما كانت نوبه العمل تنتهى.. كانت "العربة والبقرة" يجلسأن دائما إلى جواره يتهامسون ويحادث كل منهم الآخر بصوت خفيض واهتمام بالغ.. أو كانوا يجلسون جميعا فى صمت وكل منهم غارق فى أفكاره.

كان اسمه لازار. كان وجهه مكتسيا دائما بعلامات الألم الجسدي وعيناه العسليتان تتضحان فى اتساعهما غير العادى بالآسى المقيم.

فى رفقه ساشا وايليا وحدهما كانت هاتان العينان تعرفان التماعة الراحة بل والضحك فى بعض الأحيان.

كان السجناء يتناقلون الحديث عنه متهامسين. كانوا يقولون.. إن المحققين لم يكسروا له ضلوعه فحسب بل إنهم أصابوا عموده الفقرى أيضا حتى أصبحت حالته ميئوسًا منها. ومع هذا.. يقول السجناء.. فإنه لم يبع رفاقه ولم يبح بشىء.

كان آباء الثلاثة يهودًا غير أنهم فى الحقيقة أبعد ما يكونون عن اليهودية. كان والد شاسا من قدامى الأعضاء فى "اليبكتيساه" أى القسم اليهودى التابع للمباحث الشيوعية التى كانت تطيح بالرقاب ذات اليمين وذات اليسار خاصة بين اليهود.

أما والد إيليا فكان من هيئة التدريس فى جامعة موسكو. وكان والدا لازار عضوين مخلصين فى الحزب. الحزب الشيوعى بالطبع.

وبالصدفة دخلت أنا إلى عالم الشبان الثلاثة المغلق عليهم.

كان ذلك فى مساء بارد والرياح تعم بزمجرتها آذان مدينة كاراجندا التى يتوسطها السجن الذى كنا فيه. كانت الأكشاك التى نقيم فيها مبنية من الطين تحت الأرض. كان الوقت ساعة ما بعد طابور المساء الذى يحظر بعده على السجناء مبارحة الأكواخ.

أغلقت أبواب الأكشاك الثقيلة من الخارج. ولم يكن يمكن الخروج من فتحات النوافذ الضيقة المغطاة بالقضبان الحديدية.

كانت الليلة الشتوية فى بدايتها. تمدد السجناء كل على فراشة. كان البعض يتحدث مع جيرانه فى الفراش بينما لزم البعض الصمت وأفكاره تحلق بعيدًا عبر القضبان الحديدية والأبواب المغلقة. بينما كان البعض مستغرقًا فى النوم بفعل الإرهاق والضعف.

كنت أقيم حينذاك فى كشك واحد مع " الصبية الثلاثة" فى ذلك المساء كانت "العربة والبقرة" يجلسان على فراش لازار يتبادل ثلاثتهم الحديث الهامسى.

فجأة رأيت بركنناكو وهو شاب أوكرانى قصير القامة ممتلئ الجثة ذو عينين ضيقتين تطفحان وقاحة.. يقترب من ساشا ويحادثه وهو ممسك فى يده بصندوق شطرنج.

وأثار هذا انتباهى، فقد كان بركنناكو معروفا بالغلظة والاستهتار ومشهوراً بإثارة المشاجرات. كان يظن نفسه أشد قوة من جميع السجناء. كان منذ شب طفلاً يمارس السرقة وقضى معظم حياته فى السجون. فى كل مناسبة كان يتباهى بأنه قوى ويؤكد هذا للآخرين. ولعل هذا ما دعا بتروسيان ملك البلطجية فى السجن إلى اختياره رئيساً على خدامه وحفاظ حاجياته.

استمر الحديث بين بركنناكو وساشا لحظات جلسا بعدها على الفراش وراحا يلعبان الشطرنج. كان كلاهما فى سراويله الداخلى وفانلته. فقد كان الجو فى الكشك ساخناً بسبب الفرن المشتعل ليل نهار.

كان ساشا يبدو فى سرواله وفانلته كطفل يرتدى ملابس أبيه.

فهمت من حركات بركنناكو العصبية أن موقفه على لوحة الشطرنج يسوء. بعد حوالى عشر دقائق من اللعب وثب بركنناكو منتصباً على قدميه وبدأ يصرخ فى وجه ساشا:

- هل تعلم مع من تلعب؟ أنا بركنناكو! هل تفهم أيها اليهودى؟!.

قفز ساشا مواجهاً له رقيقاً قصير القامة.. غارقاً فى قميصه وسراويله. ووقف بركنناكو أمامه ثابتاً واثقاً بنفسه وبجسده الضخم بالنسبة لجسد ساشا الضئيل.

وفجأة وعلى مرأى من جميع السجناء.. سدد ساشا بسرعة مذهلة لطمة واحدة.. واحدة فقط.. تحت فك بركنناكو. لطمة لم يزد عليها. وإذا بركنناكو ممدوداً على أرضية الكشك. غير أنه انتفض واقفاً بسرعة وهو ينقض على

ساشا بكلتا قبضتيه. غير أن ساشا لم يمهله. لطمة ثانية كالأولى تمامًا.. ومرة ثانية كان بركنناكو مسطحًا على الأرض. كانت الدهشة بالغة لدى جميع السجناء. دهشة حركتهم جميعًا دون وعى إلى الانفجار بالتصفيق والهتاف لساشا.

وقف ساشا وسط العاصفة متأهبًا وإحدى يديه تمسكان سراويله الواسع الذى كان يصر فى تلك اللحظة لسبب غير مفهوم على الانفلات إلى أسفل.

عندما نهض بركنناكو للمرة الثانية.. اندفع إلى فراشه واستل منه سكينًا طويلة مصنوعة من السلك الغليظ ثم قفز تجاه ساشا. وفى لحظة قفزت أنا وإيليا.. ولحُسن الحظ لم نكن وحدنا فقد تكون بسرعة غريبة جدار من السجناء يحول ما بين بركنناكو وساشا.. وكلمة واحدة تصدر عنهم جميعا!.

كفى!.

لقد دفعنى هذا الحادث للمرة الأولى تجاه الفتيان الثلاثة واتصلت بيننا وشيجة صداقة قوية.. فريدة من نوعها بالنسبة لظروف السجن.

كانت قصتهم بسيطة لكنها غير عادية فى روسيا السوفيتية. كان ثلاثتهم طلابًا فى جامعة موسكو يدرسون الطب فى سنوات مختلفة. ولد ساشا فى عام ١٩٣٠ بينما ولد الآخران بعده بعامين.

كسى الشتاء القارس وجه الحياة فى مدينة كاراجندا فى عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠. كان شتاءً نادرًا فى برودته وقسوة ثلوجه. فيه اختفت الأكواخ الطينية تماما تحت الجليد حتى لم يعد يظهر منها شىء.

ومن الأحاديث المتقطعة التى كنت أسمعها منهم فى أمسيات هذا الشتاء تكونت قصة حياتهم.

كان الثلاثة أصحابًا تربط بينهم صداقة منذ كانوا فى فصول الدراسة الثانوية. وبطريقة ما وصلتهم أنباء حرب التحرير الطويله التى خاضها اليهود فى فلسطين.. فتملكهم الحماس وأصبح حلمهم الكبير.. الاستعداد للهجرة إلى إسرائيل إلى الوطن القديم. ووضعوا مراحل للعمل من أجل الهدف. أولاً ينبغى

إنهاء الدراسة والحصول على تخصص علمى ممتاز وبعد ذلك ينبغى الاهتمام بجمع المعلومات من جميع المصادر.. أساسية وغير أساسية.. حول تاريخ شعبهم وماضيه وكذلك حول تاريخ أرض فلسطين وماضيها.

وهكذا راحوا يقرءون ويحللون "حرب اليهود" لفونخت فانجر وسائر كتبه وأشعار بيالق فى الروسية وكتابات جابوتينسكى.

كانوا يجمعون كل سطر وكل مقال عن أرض إسرائيل ينشر فى الصحافة السوفيتية. وانضم ثلاثتهم إلى الكومزمول فى الجامعة وسرعان ما تحولوا إلى خلية خاصة داخل الكومزمول العام. وبدأت هذه الخلية تنظم خلايا كومزمولية يهودية حولها. عندما وصل عددهم إلى بضع عشرات من الرفاق امتنعوا عن قبول أعضاء جدد. لم يقبلوا بينهم سوى فتاة واحدة على سبيل التجربة. وكانت هى السبب فى الكارثة التى حلت بهم ولكن دون قصد منها. فلقد كانت ضعيفة لم تقدر على الصمود فى تجربة التحقيق واحتمال العذاب على يد المحققين.

واعتقل الجميع.

وفى السجن ظلوا يتصرفون على نحو ما كانوا يفعلون فى خلايا الكومزمولات اليهودية:

كان الثلاثة يجتمعون فى الأمسيات.. يغنون أغان بألحان روسية وكلمات روسية. لكن هذه الكلمات كانت تتحدث عن وطن بعيد.. عن المعاناة فى الغربة.. عن إخوة يناضلون من أجل حرية الشعب الذى تعذب الفين من السنين.. عن المكابيين الجدد.

كانت معظم أغانيهم الروسية تنتهى بكلمتين أولهما روسية والثانية عبرية.. "أنا.. مهاجر".

عندما سألتهم من أين لهم بالكلمة العبرية " مهاجر " لم يستطع أحدهم الإجابة عن سؤالى. حتى ترجمة الكلمة لدى ساشا كانت غير عادية فى اتساعها.. كانت الترجمة أوسع بكثير من معنى الكلمة المحدود.

- المهاجر.. هو اليهودى الذى سافر إلى إسرائيل ليكرس حياته من أجل الوطن ومصالحه.

عندما سمعت هذا التعريف لكلمة مهاجر تذكرت يهوديًا كنت أعرفه عرف كلمة "حالوتس" "رائد الهجرة" بأنه كتلة الحديد الخام التى يخلق منها الوطن ما يحتاج إليه.

لم يكن اسم ذلك اليهودى ساشا بالطبع وإن كان اسمه قريبًا من هذا فى جرسه. أوسيا.. أوسيا ترومبلدور.

حكيت لهم عنه كنا نجلس معا ساعات طويلة وعيونهم معلقة بى فى توهج وهم يصغون لحديثى فى انفعال وتيقظ.

لقد تحولنا إلى كتلة واحدة. إلى إنسان واحد داخل السجن.. داخل واقع قاس مثير للسخط والكدر.. يشبه السلك الشائك المكهرب.. يشبه الجندى الكئيب الواقف بمدفعه على برج الحراسة.. يشبه أكواخ الطين الكريهة فى جوف الأرض.. يشبه رقم السجن على ظهر الإنسان وصدره وقبعته.. يشبه العمل الشاق على أرض كاراجندرا القاسية وفى مناجمها.

ومع كل هذا كنا نعيش فى حلم.. لقد جذبنى الشبان معهم إلى عامل المستقبل الذى كانوا فى انتظاره.

والآن بعد عشرات السنين من تلك اللقاءات الرائعة أجد نفسى أردد مع أولئك الشبان وبنفس اللحن وبنفس المعنى تكلما الكلمتين اللتين عرف ساشا فى السجن معناهما دون أن يعرف كلمة عبرية واحدة.

"أنا مهاجر".

مآخذ الشيطان على فاوست، للكاتب ش. د. بونين

الديكور هنا سحاب وضباب، نفس الديكور الظاهر فى افتتاحية (فاوست) والذى يبدو كنوع من المحاكاة أو الصياغة الأدبية الفنية لسفر أيوب. ضياء هادئ ينبعث من داخل السحاب، كأنها الشمس على وشك الشروق وقد توسطتها صورة أبوية مهيبة كتلك التى نراها فى لوحة (خلق الإنسان) لميخائيل أنجلو. خلف الضباب يمكننا أن نلمح بصعوبة الشخصية الأولى المتربعة فى إطار العرش الإلهى المغلف بالضباب.

زرافات الملائكة تأتى متتابعة لتمثل أمام الشخصية الأولى. تقع الملائكة فى إسار الدهشة إذ تكتشف أن من تمثل أمامه ليس سوى النائب. يتخذ القادمون الأماكن المحددة لهم، نقاب الدهشة ينحسر عن وجوههم ليكسوها ثوب من الجمود والإذعان.

يبدو الشيطان أكثر الجميع دهشة.

إنه لا يحاول أن يحد من اندهاشه، لا بد أنه سيثور معربًا عن موقفه بوضوح. غير أنه لعجب الجميع - فيما عدا النائب - لا يفعل ذلك.

مازال الشيطان على حالته الأولى. ضائقًا متبرمًا لأنه لم يجد أمامه سوى النائب، ولكن يبدو أن دهشته الكبيرة لم تكن بالقدر الكافى لإخراجه عن صمته.

سأله النائب عن الرجل الذى يتعذب منذ سنتين فى أوشفيص (معسكر الاعتقال النازى لليهود فى بولندا خلال الحرب العالمية الثانية).

فأجابه هناك رجال كثيرون يتعذبون منذ سنتين فى أوشفيص.

قال النائب أعنى الرجل الذى لا يكف عن الاستشهاد بسفر أيوب.

أجاب الشيطان: هو لا يستشهد بسفر أيوب كله، إنه لم يستشهد بإجابة (أيوب) خلال العاصفة، بل إنه لم يستشهد بما قاله أصحاب أيوب.

قال النائب خبرنى عنه على الرغم من ذلك.

وهنا وقع تحول مفاجئ فى الحديث، فقد سأل الشيطان النائب قائلاً: أليس يهمك فى العالم كله سوى ذلك الرجل؟

وتباطأ النائب فى الإجابة واستطرد الشيطان:

وذلك الطفل ابن الثامنة الذى فر من يدى أمه والجلادين على حد سواء وقفز من فوق الأسوار الحادة المدببة ونجح فى الاختفاء عن أعين الجلادين الذين استغاثوا بموقع أوشفيص. فأعلن الموقع حالة التأهب إلى أن قبضوا على الطفل واقتادوه فى تجلة بالاحترام (حيث كانت قلوبهم تخفق له بالاحترام) إلى غرفة الغاز. هذا الطفل لم تره؟ ألم يكن أمام عينيك؟

وتباطأ النائب فى الإجابة.

وراح الشيطان يتحدث عن أوشفيص وعن عنابر التعذيب وعما يدور هناك.

وصمت النائب ولم يجب.

كان الشيطان مندفعا فى ثورته مع علمه الواضح بأنه لا جدوى من الثورة؛ لذا أنهى حديثه بقوله إنه عائد إلى أوشفيص ليواصل أداء مهمته.

نظر إليه النائب نظرة فاحصة وطلب منه أن يحدثه عن مهمته فى أوشفيص وعما وجد أنه يستوجب التصحيح هناك من وجهة نظره الشيطانية. امتلأ فم الشيطان ببسمة كبيرة ثم تقلصت خطوط وجهه لترسم تعبيراً من الأنفة والنفور

لم يكن واضحًا مَن المقصود به، النائب الجالس على العرش الإلهى، أوشفيص وجلادوها أم ضحاياها. لا أحد يعرف. وعاد النائب يتساءل ! أوشفيص؟ ماذا ستفعل فى أوشفيص ! وساد صمت راح يتضخم ويرتفع حتى تحول إلى حاجز منصب ما بين النائب والشيطان.

فى نهاية الفصل الرسمى من الاجتماع قامت جوقة من الملائكة بإنشاد البيتين الأخيرين من الجزء الثانى من (فاوست) فى أصلهما الألمانى.

تقدم الشيطان مبديًا اعتراضه على إلقاء أشعار فى اللغة الألمانية لغة الجلادين.

وراح يقدم أمثلة عديدة من التعبيرات السامة الجارية على ألسنة الجلادين فى الألمانية بل أوضح أن لديه ما يأخذه على كبير شعراء الألمانية ذاته.. أرهف النائب سمعه ليستبئ ما عند الشيطان من مآخذ على معشوقه جوته العظيم.

قال الشيطان إنه يعاف قراءة مشهد (فاوست) الذى يقدم فيه جوته وصفًا لفاوست وهو ينام على بساط مزركش من الزهور، بينما ثلة من الملائكة والمخلوقات السماوية الرقيقة ترف مَن حوله وهى تغنى أغان وألحان سرية تنفذ خلال حجاب نومه لتكسبه مذاقًا حلوًا وتصبغ أحلامه بألوان زاهية.

تعجب النائب من إحساس الشيطان هذا وتساءل عن سببه. غير أن الشيطان أصيب بالدهشة لهذه المساءلة أفلا يدرك النائب بداهة ما ينطوى عليه التتابع المباشر بين المشهد السالف والمشهد أو المشاهد التى تصور قتل أربعة أشخاص على يد فاوست، من قصور فى معايير الفن والذوق والجمال والأخلاق على حد سواء؟

بغض النظر عن الظروف وعن دور الشيطان نفسه فى هذه الجرائم - يعتبر فضيحة من زاوية الذوق والفن والجمال والأخلاق، أن يعامل الشاعر قاتلاً على هذا النحو فيهيئ له بساطًا من الزهور ينام عليه ويدعو إليه جماعات من الملائكة تهدهده بألحان سماوية؟!.

وفاقت دهشة النائب كل حد، كانت الدهشة تملك زمام نفسه للشاعر الذى تصرف على هذا النحو، وللشيطان الذى أبدى هذه المآخذ على الشاعر. على هذه الصوره انتهى اجتماع الشيطان مع النائب.

فيما يلى مذكرة تضم تلخيصًا موجزًا للاجتماع السابق وتضيف بعض المعلومات إليه. صعد الشيطان ليمثل أمام العرش، لم يجد أمامه سوى النائب يجلس على العرش.

دهش الشيطان ولم يدهش. دهش لأن غريبًا يجلس على العرش ولم يدهش بعد أن رأى ما حدث فى الأرض.

توقع أن يسأله النائب عن ذلك. غير أن النائب لم يسأله. تعجب لأن النائب لم يسأله على الإطلاق. ولم يتعجب بعد أن رأى النظم والعادات الجديدة فى السماء.

حقيقة كانت الملائكة بضة ممتلئة، إلا أن قبة السماء - كأى لوحة أرضية - كانت قد فقدت بعض رونقها وحال بهائها. تساءل الشيطان فى دخيلة نفسه.. ماذا ومَن بقى لى هنا فى السماء؟

انتابه إحساس بالتأفف من نفسه ومن كل ما يحيط به هناك، ولذا عمد إلى اختزال الاجتماع بقدر المستطاع.

أحاط به الملائكة وراحوا يتفرسون فيه وكأنهم جماعة من الريفيين يستقبلون أحد أبناء قريتهم وقد عاد من رحلة طاف خلالها بكبريات المدن. كانت عيونهم البريئة الواسعة معلقة به، وبقدر ما كانت عيونهم البريئة الواسعة معلقة به، وبقدر ما كانت تشع معانى البراءة كانت تطفح بحب الاستطلاع. وفى الحقيقة كان الشيطان ميالاً لأن ينقع غلتهم ويروى ظمأهم إلى أخبار الدنيا. ولكن ما لديه من أنباء لم يكن مما يصلح لهم. ويبدو أن النائب نفسه لم يكن مستعداً لسماع هذه الأنباء ولو من قبيل الذوق وحده.

لقد كان بكل ما فيه نتاجًا لثقافة عصر النهضة. كان يبدو كنسخة من أحدث لوحات ميخائيل أنجلو. نسخة جانبها التوفيق إلى أبعد الحدود إذا لم تعد فى

أحط دركات الفشل. صورة للآباء الأول هرمة، علها بدت مغلفة بالضباب لضعف الضوء المنبعث من القبة السماوية، حتى لم يعد يضيؤها ويظهرها سوى بياض شعرها الذى يكشف عن هرمها.

راح الشيطان يسأل نفسه.. ما لصاحب هذه الصوره.. هذا اليهودى القديم الذى تحول إلى المسيحية والأنباء التى أحملها؟ كيف سيتلقاها؟ ماذا سيكون تعليقه عليها. إن شأن هذا اليهودى شأن شاهد القبر الحجرى الموضوع على قبره.

وماذا يعنى حجر الشاهد من الأنباء الجديدة التى تصل كل لحظة من (أوشفيص) أو من عنابر الاعتقال؟

على حين فجأة اهتزت قبة السماء ثم انهارت على الشيطان، واختفى العرش الإلهى واختفت الشخصية التى كانت تتربع عليه ووجد الشيطان نفسه داخل أحد عنابر المعتقلين وقد صور فى هيئة معتقل جائع مصاب بالدسنتاريا وأكوام من الحشرات تزحف على جسمه وتتغذى على دمه.

راح الشيطان يحك رأسه الحليق ويحادث نفسه، ياللشيطان! متى أمكنهم حلق شعرى؟ أولم يسعهم على الأقل أن يلقوا على بالماء فيزيلوا عفونة جسدى وعفن الخرق التى ألبسونى. نظر إلى ما يغطى جسده من أثمال وراح يحاول انتزاعها بما تحمله من حشرات فى حنق من على جسده ولكنه لم ينجح. ليكن إذن ما يكون. فنحن الآن فى عام ١٩٤٤ والألمان على أعقاب الهزيمة ولن تمتد الحرب لأكثر من سنة أو سنتين أو حتى ثلاث. وخلال هذه الفترة سيكون أمامى متسع من الوقت للتأمل والتدبر. إننى أرى على البعد شيئًا ما، شيئًا يكاد ألا يكون إنسانًا. فلأقترب منه.

صيدلى كان له ولدان. سمم ولديه قبل أن يبعثوا بهما إلى أوشفيص. سمم نفسه كذلك غير أنهم استطاعوا إنقاذه. تناولت امرأته السم هى الأخرى وماتت. فى نفس اليوم أرسل إلى أوشفيص ضمن الشحنة الأخيرة من يهود الجيتو. وصل هناك وحيداً.

لم ينظر حوله ولم ير أحدًا ممن يحيطون به.

عندما وقف أمام الضابط الذى أشار إليه بالاتجاه ناحية اليمين، تحرك إلى اليمين دون أن يعنى بالنظر إلى الرجال والنساء والأطفال الذين وجهوا ناحية اليسار.

بعد ذلك وجد نفسه وسط مجموعة لم يشعر أن له بهم أية صلة.

فى ذلك الصباح المصيرى عندما وجد امرأته وطفليه موتى ووجد نفسه على قيد الحياة. لم يتعجب لأن الجهود التى بذلت لإعادة الأربعة إلى الحياة لم تنجح إلا بالنسبة له، ولم يدن الآخرين لأن الجهود لإعادة الحياة إلى امرأته وطفليه لم تنجح - إن شيئًا من هذا لم يطرأ له على بال، قال كان ذاهلاً دهشًا دون أن يدرك معنى أو تفسيرًا لذهوله ودهشته. كان حوله رجال مستغرقون فى العمل بينما كان هو وحيدًا فى عزلته عنهم. حزموا الجثث ونقلوها أمام عينيه وهو معها.

ومن المقابر نقل هو والمشيعون إلى عربة الحيوانات المتصلة بمؤخرة القطار.

قضى نهار وليله فى العربة حتى وصل القطار إلى أوشفيص. كان الرجال المكدسون وقوفًا فى العربة يخمنون طيلة الوقت وجهة القطار على أساس ما يمر من مناظر يشاهدونها من خلال القضبان.

فقط وقبل أن يطلع الصباح أمكنهم أن يدركوا أن القطار يقترب من أوشفيص.

ظهرت آثار الجرى خلال طرقات أوشفيص الملتهبة على مَن يعدون وعلى مَن يسوقونهم على حد سواء.

كان رجال الفرماخت وال. س. س يسوقون أفراد الشحنة منذ نزلوا من عربات القطار فى صفوف يضم كل منها خمسة دون إبطاء أو وقفات للراحة. ولولا أسوار النباتات الوارقة الخضراء التى تسبح فى طرقات أوشفيص لما لقيت العيون هى الأخرى فرصة للراحة. على الأقل كانت العيون فى راحة. كانت الشفاة المتحرقة تمتد إلى الأوراق اليانعة الرطبة وتنجح أحيانًا فى لمسها بينما السيقان تعدو على وهم وإطفاء جذوة الظمأ المتأججة فى الحلوق.

بعد نصف يوم من الركض أمر الجمع بأن يتوقف على مقربة من الحمام. كان قد فقد قبعته خلال الجرى. وكان العدو والقيظ والضربات التى تلقاها على وجهه ورأسه قد أصابته بالذهول الكامل وخنقت الآلام فى جسده قبل أن يبدأ إحساسه بها. بينما كان وعيه يستيقظ كان بعض الرجال يزحفون من حوله الأعياء. وعلى مقربة كانت عائلات عديدة مكدسة بعجائزها ونسائها وأطفالها داخل أكشاك مقوسة، بينما الأطفال ينفذون إلى خارج الأكشاك ليلعبوا حولها.

لقد كان أولئك جميعًا فى غرف الغاز والأفران ولكنهم لم يكونوا يعرفون. مشهد الأطفال وهم يلعبون فى انتظار دورهم لدخول غرف الغاز.. على أى حال لم يكن مصير ولديه كمصيرهم.

قطع عليه الشيطان تفكيره وبادره بإلقاء السلام. رد الصيدلى السلام وراح يحدج الشيطان بنظرات كأنه يقول.. من أنت. أجاب الشيطان على سؤاله الصامت إجابة أبعد ما تكون عن السؤال فقال:

- لم يحدث أن طرأ على ذهنى مثل هذا التفكير.

- الصيدلى: ماذا إذن؟ هل كان ينبغى أن آتى بهما إلى أوشفيص؟

- الشيطان: هل أنا بديل عن الرب كى تسألنى عن ذلك؟

- الصيدلى: ما دام الأمر كذلك، فلماذا تقول إنك لم تفكر مثلى قط؟

- الشيطان: أردت أن أقول إننى لم أجرب موقفك قط.

- الصيدلى: إذن لا تناقش صاحبك حتى تجرب موقفه.

رأى الشيطان بين المعتقلين صبيًا. اتجه إليه وانحنى عليه وجعل يتأمل وجهه الشاحب برهة.

- أيها الفتى.. أيها الفتى.

فتح الفتى عينيه.

- مَن ينادينى؟

شاهد الشيطان جرابًا مليئًا بالخبز معلقة برقبة الفتى .. سأله لماذا لا تأكل .. علك غير جائع؟ كم عمرك يا فتى؟

– الفتى: ثمانى عشرة.

– الشيطان: ثمانى عشرة؟ إن مظهرك كابن الرابعة عشرة؟

– الفتى: كنت كذلك يومًا.

– الشيطان: كان الحال طيبًا.. أطيب من الآن على أى حال.

– الفتى: إننى أصغر من أن أعيش على الذكريات. إننى أحيا ولا أفكر إلا فى الماضى القريب الذى يرجع إلى شهر أو شهرين.

– منذ متى وأنت فى أوشفيص؟

– الفتى: منذ حوالى ستة أشهر.

– الشيطان: هل جئت وحدك؟

– الفتى: وحدى؟ مع الأسرة جميعها. أخذونى وحدى للعمل. أما الباقون فقد ذهبوا. إننى أعيش هذه الحياة الكريهة دون ذكرى واحدة. كل ما لدىّ إحساس بالقرف والغثيان يتملكنى من الصباح إلى المساء. لا بد أن أتخلص من هذا الإحساس، ألديك حبه أو شىء ما يزيل هذا الإحساس الكريه غير المحتمل؟.

– الشيطان: ماذا حدث لك أيها الولد؟

– الفتى: إننى فى الثامنة عشرة. لقد أخذنى ضابط إل س. س. من حفل عرس لأعمل مساعدًا وبستانيًا وخادمًا فى بيته.

كانت زوجته منفرة. ولكن كانت لديه بنتان رقيقتان، غاية فى البراءة والنقاء. كانت المرأة تشبعنى ولكنها كانت منفرة.

بعد ذلك استبعدنى من بيته وضمنى إلى جماعة. كانت الجماعة تقوم بأعمال مختلفة. أما أنا فقد قصرنى على أعمال الحدائق. كان واجبى الأساسى أن أرعى أسوار النباتات.

كنت أعود كل مساء إلى الجماعة لأبيت معها فى الكوخ. كنت أرى الصفوف الممتدة تتجه إلى الأفران. كنت أراهم جميعًا من بعيد خلف أسوار السلك، لم تكن أحاديثهم وصرخاتهم - إن كانت لهم أحاديث وصرخات - تبلغ سمعى. كانوا يبدون لى كقوم يذهبون إلى النزهة، نزهة لا تنتهى.

كل يوم كان هناك من يذهبون للنزهة. رجال من جميع البلدان ومن كل الشعوب.

كثيرًا ما تمنيت لنفسى أن أذهب معهم للنزهة حتى نهايتها. لم يكن إحساسى فى ذلك الوقت أفضل منه اليوم. بل لعله كان أفضل. على الأقل كنت أشعر أننى واحد من أولئك الذين كنت أرافقهم ثم أودعهم. كنت أستقبلهم وأرافقهم ثم أودعهم كواحد منهم كأننى قريب لهم.

لعل إحساسى المعتل الآن يرجع إلى مرضى وضعفى. فى ذلك الوقت كنت سليمًا معافى. كما قلت لك كان ضابط ال س. س يشبعنى إنه كان يعطينى مما يطعم.

كنت أعمل وفى نفس الوقت أنظر وأراقب ما يجرى على بعد، وبمرور الوقت أصبح النظر والمراقبة عسيرين على نفسى وتحولا إلى إحساس بالغثيان.

تقيأت عدة مرات على العشب، ولعل ذلك لأننى كنت آكل حتى أشبع، وعندما كنت أتذكر وأتصور منتهى رحلة أولئك السائرين الذين لا تنتهى صفوفهم إلى الأفران.

هل رأيت طابورًا من النمل الأسود؟ إنه يسير ممتدًا دون أن ينتهى تمامًا كهؤلاء الرجال من العجائز والضعاف والأقوياء والأصحاء والصبية المعافين.

فى إحدى المرات وجدنى ضابط ال س. س وقد تقيأت الطعام الذى أعطانى إياه على العشب الأخضر المرتوى.

"إنك أخضر ومرتو كهذا العشب".. راح يردد هذه العبارة، وهو يدق جسدى ووجهى بحذائه فى عنف وقسوة حتى فقدت وعيى. ولم أعد إلى الكوخ للنوم.

بحثوا عنى ووجدونى غارقًا فى القىء والدم. سكبوا علىّ الماء.. كثيرًا من الماء.. أجبرونى على أن ألعق القىء والدم لأنظف العشب الأخضر الذى رويته بقيئى ودمى. ولم يرض ضابط ال س.س عما فعلوه بى وعما لم يفعلوه.

هكذا لم أعرف للحياة سوى وجه واحد إننى أصغر من أن أعيش على ذكريات وعلى ماضٍ يرجع إلى سنوات، إعطنى بعض الماء إننى جائع، ولكن لا أستطيع أن آكل إن اللقمة تنغرس فى حلقى كالوتد وإذا ما ابتلعتها خرجت من الناحية الأخرى قبل أن أشعر بحاجتى إلى ذلك.

إن هذا هو وجه الحياة الوحيد.. فهل لها وجه آخر؟ إنك لا تفعل شيئًا سوى أنك تحملق فى.. هل أنت تقيسنى أو تدرسنى؟ لو لم يكن والداى قد ماتا لآتيت معهما بعمل عنيف لأنهما أنجبانى.

- الشيطان: يا فتاى.. يا فتاى.

- الفتى: هل حدث أن لاطفتنى من قبل؟

إن ملاطفتك تشبه ملاطفة ضابط ال س.س خلال الأيام الأولى من خدمتى إياه.

- الشيطان: لست ضابط ال س. س.

- الفتى: إذن يمكنك.

واستغرق الفتى ابن الثامنة عشرة والذى يبدو وكأنه فى الرابعة عشرة فى سبات عميق.

الفهرس

الفصل الثالث: نغمات الانكسار والحزن والحداد والاحتجاج فى الشعر الإسرائيلى (١٩٦٧-١٩٧٠)

الفصل الرابع: قصص الحرب ١٩٦٧-١٩٧٠

قصص العزلة واليأس

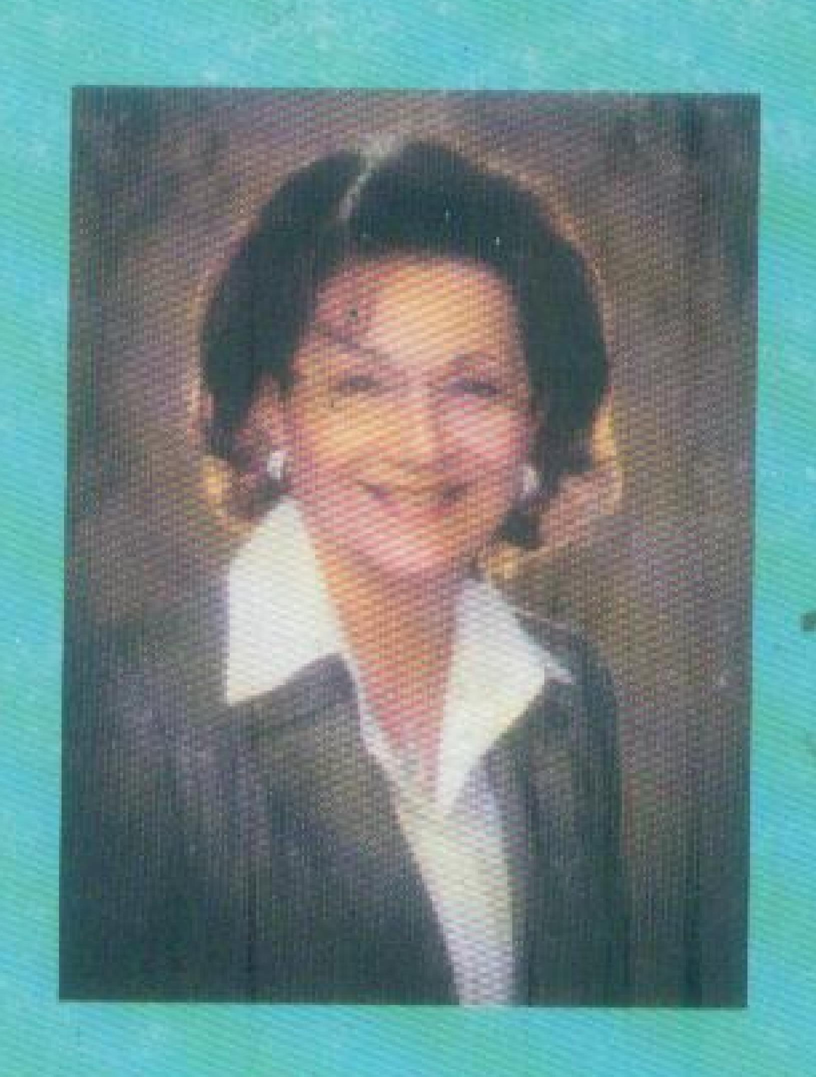
قصص المعارك

الفصل الخامس: أشعار حرب أكتوبر ١٩٧٣

الصدمة والفزع والدوار والاستنجاد بالسماء

الفصل السادس: قصص الشحن الإيجابى والتخويف من معاداة السامية

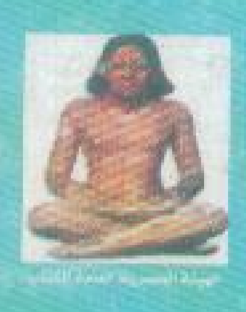
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. maktabetelosra. org.eg
E - mail : info@egyptianbook.org.eg



تذكرت بمناسبة مرور عشرين عامًا على بدء مشروع القراءة للجميع عام ١٩٩٠، حكاية تقول إن الفيلسوف اليونانى "أرسطو" كان معلمًا للإسكندر المقدونى، وإنه استطاع أن يشحن وجدان الإسكندر، ويشحذ رغبته ولعًا بكل أشكال التعليم والقراءة. حتى إن الإسكندر لم يكن يظهر إلا وفى يده كتاب، لكن حدث خلال إحدى رحلاته إلى آسيا أن عانى قلة الكتب، فإذ به يأمر أحد قادة جيوشه أن يحضر له بعض ما يقرؤه وكأن هذه الحكاية قد جاء تذكرها بمثابة حساب للنفس عما أنجزناه حتى لا يعانى أحد قلة الكتب وجودًا وثمنًا، فجاءت مكتبة الأسرة، التى بدأت عام ١٩٩٤، هى المصالحة الواقعية التى تجاوزنا بها تلك المشكلة، تحقيقًا للإتاحة العامة للكتاب، وذلك بالربط بين اتساع إصداراتها المتنوعة فى شتى مجالات المعرفة، والدعم المادى الذى تتمتع به أسعار تلك الإصدارات، فتجعلها فى متناول الجميع. وقد تلازم نشاط مكتبة الأسرة لسنوات عدة مع فعاليات مشروع القراءة للجميع، لكننا أخيرًا أكدنا ضرورة استمرار إصدارات مكتبة الأسرة طول العام، انطلاقًا من حكمة قديمة مازالت تعاصرنا، وهى أن من يستطيع القراءة، يستطيع رؤية ضعف مايراه الآخرون.

سوزان مبارك







ISBN # 9789774216675
6 221149 018556



٤ جنيهات